ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ
وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم
بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ١–٢ ، السنـــــة : ٥١

المحرم – صفر ١٤٤٨هـ ، يونيو – أغسطس ٢٠٢٦م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ١٢٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت
Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني
E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس
Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- هلال يمن وخير — التحرير — ٣

كلمة العدد

- ميزات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخصائصه — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من ظلال التفسير — العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- الإسلام دين الإخاء — الشيخ عبد العزيز محمد عيسى — ١٦
- من الإعجاز البياني في القرآن الكريم — رئيس التحرير — ٢٣
- العلاقة بين الزوجين — فضيلة الشيخ أحمد الخميس — ٣٧
- التكامل المعرفي وأثره على النهضة العلمية والحضارية — الأستاذ يوسف العزوزي — ٤١
- التقويم الهجري والميلادي: رؤية إسلامية مُتزنة — الأستاذ محمد رضي الرحمن القاسمي — ٤٨
- الإمام المفسر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري — الشيخ عبد الفتاح أبو غدة — ٥٢
- النظم الدبلوماسية في الجاهليَّة والإسلام — الأستاذ حسن فتح الباب — ٦٤
- لابد من تدارك الأمر — الأستاذ مصطفى مشهور — ٧٧
- رسول الله بين منصفيه وخصومه الغربيين — الأستاذ أنور الجندي — ٨١
- الصحبة وآدابها — الأستاذ حازم خنفر — ٨٧

فهرس مقالات

- فهرس مقالات منشورة في مجلة «الداعي»

من العدد الأول إلى العدد الثاني عشر عام ١٤٤٧هـ — الأستاذ عمار عزيز العثماني — ٩٢

إشراقة

- القلم نعمة أي نعمة — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ١٠٠

كلمة المحرر

هلال يمن وخير

مع دخول شهر الله المحرم من كل سنة تتجدد ذكريات الهجرة النبوية من مكة بلد الله الأمين إلى الطَّيبة الطيبة؛ فإن الهجرة لم تكن تشكل حادث تحولٍ من مكان إلى مكان آخر، و من بلد إلى غيره فحسب؛ بل مثلَّت منعطفًا في تأريخ البشرية لم تشهد مثله في غابر الزمان، و شكَّلت منطلقًا للدعوة الحبيسة في مكة: بين جبالها و وديانها وأوهادها وأنجادها: الدعوة إلى الخير والصلاح والإخاء والتعاطف والتراحم، وإلى فك أغلال الضلال والجهل، وإلى آفاق أوسع وإلى مكان أرحب، كما شكَّلت أعظم حدث طَرَقَ مسامعَ الزمان، وأرهف له الكفر والظلم و الاستبداد والاستعباد والقهر آذانها، دعوة هانت في سبيلها وبطلت جميعُ أساليب الإغراء من خزائن الأرض والجاه وسلطة الحكم والسيادة، ولم يبق لها عمل في الحيلولة دون انتشارها و شيوعها وعمومها رغم كل ما واجه صاحب الدعوة وأصحابه في سبيلها من كيد الكفر والشرك، و مكر الأعداء، والمعاناة الفادحة، ومشاق الطريق وصعوباته.

وتشكِّل الهجرة نقطةَ تحولٍ كبيرٍ للحياة الاجتماعية البشرية: من قسوة الجبابرة وظلم الطغاة إلى رحمة الإسلام و رفقه ولينه وبساطته ومرونته؛ ومن جو الخوف على الأنفس والأموال والأعراض، ومن الذعر والهلع في القلوب إلى ظلال الطمأنينة وسيادة الأمن والرخاء والسخاء؛ ومن الشقاق والخلاف إلى النظام والوئام والتناغم، في شرق الدنيا وغربها، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة.

وعلى المسلمين - وهم يقفون على أبواب العام الهجري الجديد منكسي الرؤوس و جرحى النفوس، وفي أحرج مراحل حياتهم الدينية والاجتماعية – يجب أن يقابلوا العام الجديد بالأمل والرجاء لا باليأس والضيق والقنوط؛ فإن الإسلام يحذر أتباعه أن يقنطوا من رحمة الله. و يجب عليهم أن يمتثلوا أحكام الإسلام في جميع شعب حياتهم، وأن يعودوا إلى وعيهم ورشدهم، ويتفطنوا لما يراد بهم من شرور وفتن، وما يحاك ضدهم من مؤامرات ودسائس على أيدي شياطين الإنس والجن وإخوانهم وأذنابهم، ليفرقوا كلمتهم ويشتتوا شملهم، ويعودوا بهم شيعًا و أحزابًا يضرب بعضهم رقاب بعض، أكثر من أي وقت مضى.

[التحرير]

(تحريرًا في الساعة العاشرة صباحًا من يوم الأربعاء: ١٨/١١/١٤٤٧=٦/٥/٢٠٢٦م)

ميزات النبي ﷺ وخصائصه

مع دخول شهر الله المحرم الحرام يستقبل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها العام الهجري الجديد ويودعون عامًا هجريًّا ولى وأدبر بما حوى من أحلام وآلام، وأوضاع حرجة قاستها الأمة الإسلامية في مختلف أصقاع العالم البشري، ليس إلا أن آمنت بالله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وبهذه المناسبة نتناول في هذه العجالة بعض الخصائص والميزات النبوية على صاحبها ألف سلام وتحية.

لقد أعطي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لم يعطه غيره من الأنبياء مما امتاز به عنهم، و عن عامة البشر. وحياة الأنبياء عليهم السلام - وعلى رأسهم سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لاتشبه حياة عامة البشر، كما لايشبه مماتهم موتَ عامة البشر، وإن كانوا بشرًا، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف:١١٠]، حيث أمره الله تعالى أن يقر على نفسه بأنه آدمي كغيره إلا أنه أُكرِم بالوحي. و رغم هذه المماثلة شتان بين بشرية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و بشريتنا نحن، كما لايخفى على الناظر في أحواله وسيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ونضرب على ذلك مثلًا بأن النبي ﷺ كان له يد كما لنا يد، وهي مادية جسدية، لا معنوية و روحانية، ولكن تحمل يده الشريفة من الخصائص والميزات ما لاتحمله أيدينا نحن عامة البشر، فهب أننا لو ضربنا أحدًا بأيدينا؛ فإنها توجعه هذه الضربة؛ ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو ضرب أحدًا بيده، فإن ضربه بيده، وإن لم يوجع المضروبَ إلا أنه يحدث تأثيرًا معنويًّا، ولو ضرب النبي بيده في صدر أحدٍ - وإن لم يوجعه- فإنه يختلف ضربه في عمله و تأثيره عن ضربنا.

فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان معروفًا بشدته وعنفه تجاه الإسلام والمسلمين، فلما ضرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده في صدره ثلاث مرات ودعا له عادت شدته في الجاهلية إلى شدة في الإسلام وإيمان صادق، لِنَدع عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحكي لنا هذه القصة الطريفة، فيقول الراوي: قال عمر: ... يا خباب، انطلق بنا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقام خباب وابن عمه سعيد معه، قال عمر: فلما قرعت الباب قيل: من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، فما اجترأ أحد أن يفتح لي الباب لما عرفوه من شدّتي على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يعلموا إسلامي،

فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: افتحوا له، فإن يرد الله به خيرًا يهده، ففتحوا لي. قال: وأخذ رجلان بعضديّ حتى دنوت من النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال:

أرسلوه، فأرسلوني، فجلست بين يديه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فأخذ بمجامع قميصي، فجذبني إليه، ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب، اللّٰهم اهده، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرف مكة»، ورواه الحاكم [المستدرك:٤٤٩٢] بإسناد حسن عن ابن عمر: أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ضرب صدر عمر بيده حين أسلم ثلاث مرات وهو يقول: اللّٰهم أخرج ما في صدر عمر من غلّ وأبدله إيمانًا.

وضرب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ برجله جمل جابر رضي الله عنه فعاد لايشق غباره بعد أن كان عييا حسيرا لايكاد يسير، وحين مسته يده الشريفة عاد جملا غير جمله في قوته ولين عريكته، وكان خيرًا وبركة للبيت كله، فيقول جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كماروا الإمام البخاري في صحيحه [برقم:٩٩٠]: قال: كنتُ معَ النبيِّ -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- في غزاة بطريق تبوك، فكنت على جمل ثفال، فأبطأ بي جملي وأعيا، إنما هو في آخر القوم، فأتى علي النبي -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ-، فقال: «جابر!». فقلت: نعم. قال: «ما شأنك؟». قلت: أبطأ علي جملي وأعيا، فتخلفت، قال: فتخلف رسول الله -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فنزل يحجنه بمحجنه، - وفي رواية: قال: «أمعك قضيب؟». قلت: نعم. قال: «أعطنيه». فأعطيته، فزجره، ثم قال: «يا جابر،- وفي طريق: استمسك، فركبت، فوكزه - وفي طريق: فنخسه من خلفه-، فضربه بسوطه ضربة، فوثب البعير مكانه، فدعا له، فسار بسير ليس يسير مثله، - وفي طريق: فانطلق كأجود ما أنت راء من الإبل، فما زال بين يدي الإبل، قدامها يسير، فلقد رأيته أكفه عن رسول الله -ﷺ-، فقال لي: «كيف ترى بعيرك؟». قال: قلت: بخير، قد أصابته بركتك».

وروى الإمام أحمد في مسنده [برقم:١٤١٢٤] هذه القصة عن أبي عبد الرحمن الحبلي، يقول: إن جابر بن عبد الله الأنصاري برك به بعير قد أزحف به، فمر عليه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال له: «ما لك يا جابر؟»، فأخبره، فنزل رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى البعير، ثم قال: «اركب يا جابر»، فقال: يا رسول الله، إنه لا يقوم، فقال له: «اركب»، فركب جابر البعير، ثم ضرب رسول الله ﷺ البعير برجله، فوثب البعير وثبة، لولا أن جابرًا تعلق بالبعير لسقط من فوقه، ثم قال رسول الله ﷺ لجابر: «تقدم يا جابر، الآن على أهلك إن شاء الله تعالى، تجدهم قد يسروا لك كذا وكذا» حتى ذكر الفرش، فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فراش

للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان.

ويـدخل عـلى النبـي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ شـاب يستأذنه في الزنا، فينتفض الصحابة رضي الله عنهم عند ما سمعوا ذلك فزجروه ونهروه؛ ولكن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عالج الموقف بلطف ورفق وحكمة وبمنطق الإقناع العقلي، فعاد إلى رشده وإلى العفة والاستقامة حتى صار كارها للرذيلة رافضا لها. فروى الإمام أحمد في مسنده [برقم:٢٢٢١١] عن أبي أمامة قال: إن فتى شابا أتى النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه، فزجروه وقالوا: مه، مه. فقال: «ادنه، فدنا منه قريبا». قال: فجلس قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا. والله يا رسول الله جعلني الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا. و الله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا. والله جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللّٰهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه» قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء.

أرأيت كيف أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وضع يده الشريفة على صدر من استأذنه في الزنا ودعا له بأن يطهر الله قلبه ويحصن فرجه ويغفر ذنبه، وكان أحب شيء إليه الزنا فعاد لايلتفت إليه بعد ذلك، وأصبح أبغض شيء إليه.

وهذا جرير رضي الله عنه، كان لايثبت على الخيل، فضرب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في صدره، ودعا له، فثبت عليها. ففي دلائل النبوة للأصفهاني (١/٤٥٤) عن جرير بن عبد الله البجلي قال: كنت لا أثبت على الخيل، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فضرب بيده على صدري حتى رأيت أثر يده على صدري فقال: «اللّٰهم ثبته واجعله هاديا مهديا فما سقطت عن فرس بعد».

وهذا علي رضي الله عنه يبعثه النبي ﷺ قاضيًا إلى اليمن، فيتردد علي رضي الله عنه في ذلك فيضرب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في صدره ويدعو له فما شك في قضاء بعدُ. روى الإمام أحمد في المسند [برقم:٦٣٦] عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، يقول: بعثني رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله، تبعثني وأنا شاب أقضي بينهم ولا أدري ما القضاء، قال: فضرب في صدري بيده»، وقال: «اللّٰهم اهد قلبه وثبت لسانه»، قال: فوالذي فلق الحبة ما شككت بعد في قضاء بين اثنين».

وقصة أخرى لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نفسه، كان يشتكي وجعًا، فمر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وضربه برجله، ودعا له، فما اشتكى بعده أبدًا. روى الإمام أحمد في مسنده [برقم:٦٣٧] عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: مر بي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا وجع، وأنا أقول: اللّهم إن كان أجلي قد حضر فأرحني، وإن كان آجلا، فارفغني، وإن كان بلاء فصبرني. قال: «ما قلت؟» فأعدت عليه، فضربني برجله، فقال: «ما قلت؟»، قال: فأعدت عليه، فقال: «اللّهم عافه، أو اشفه»، قال: فما اشتكيت ذلك الوجع بعد».

وهذا عدو الله أبي بن خلف كان يتوعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مكة أنه يقتله، فقال له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنا قاتلك، فخدشه في عنقه خدشًا غير كبير، فمات، يقول ابن هشام في السيرة النبوية (٨٤/٢): قال ابن إسحاق: وكان أبي بن خلف، كما حدثني صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، يلقى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة، فيقول: يا محمد، إن عندي العوذ، فرسا أعلفه كل يوم فرقا من ذرة، أقتلك عليه، فيقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بل أنا أقتلك إن شاء الله. فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشًا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد! قالوا له: ذهب والله فؤادك! والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فو الله لو بصق علي لقتلني. فمات عدو الله بسرف، وهم قافلون به إلى مكة.

قال الزرقاني في المواهب اللدنية (٤٣٧/٢]: وفي رواية: قال له أبو سفيان: ويلك ما بك إلّا خدشة، قال: ويلك يا ابن حرب، ما تعلم من ضربها، أما ضربها محمد، وإنه قال لي: سأقتلك، فعلمت أنه قاتلي، ولا أنجو منه، ولو بزق عليَّ بعد هذه المقالة لقتلني، وأنا أجد من هذه الطعنة ألمًا لو قُسِّمَ على جميع أهل الحجاز لهلكوا، وكان يصرخ ويخور حتى مات.

وهذا عثمان بن أبي العاص كان يجد في نفسه وسواسًا، فاعتذر عن إمامة الناس حين أمره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يؤم قومه، فضرب النبي بيده على صدره، فذهب ما كان يجده. روى الطبراني في الأوسط [برقم:١٤١٤] عن عثمان بن أبي العاص قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أم قومك». قلت: يا رسول الله، إني أجد وسواسًا، فضرب بيده على صدري، فلم أحس به بعد، وقال لي: «أم قومك، ومن أم قوما فليخفف؛ فإن وراءه الكبير والضعيف وذا الحاجة».

وهذا شيبة بن عثمان كان قبل إسلامه يتحين الفرصة لقتل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما خرج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه إلى هوازن خرج معهم ليغتال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيضع

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده على صدره فيذهب ما فيه، وصار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليه من سمعه ومن بصره ومن كذا، لندَع شيبة بن عثمان يحكي لنا هذه القصة كما رواه الطبراني عنه في الكبير [برقم:٧١٩٢]: قال شيبة بن عثمان: لما غزا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حنينًا، تذكرت أبي وعمي، قتلهما علي وحمزة، فقلت: اليوم أدرك ثأري في محمد، فجئته فإذا العباس من يمينه، عليه درع بيضاء كأنها الفضة، فكشف عنها العجاج، فقلت: عمه لن يخذله، فجئت عن يساره، فإذا أنا بأبي سفيان بن الحارث، فقلت: ابن عمه ولن يخذله، فجئته من خلفه، فدنوت ودنوت حتى إذا لم يبق إلا أن أسوره سورة بالسيف، رفع إلي شواظ من نار كأنه البرق، فخفت أن يمحشني، فنكصت القهقرى، فالتفت إلي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «تعال يا شيب»، فوضع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يده على صدري، فاستخرج الله الشيطان من قلبي، فرفعت إليه بصري وهو أحب إلي من سمعي ومن بصري، ومن كذا، فقال لي: «يا شيب، قاتل الكفار».

وفي رواية له [برقم:٧١٩١] عن مصعب بن شيبة، عن أبيه، قال: خرجت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم حنين، والله ما أخرجني الإسلام، ولا معرفة به؛ ولكني أنفت أن تظهر هوازن على قريش، فقلت وأنا واقف معه: يا رسول الله، إني أرى خيلا بلقاء؟ قال: «يا شيبة، إنه لا يراها إلا كافر»، فضرب بيده على صدري، ثم قال: «اللّٰهم اهد شيبة»، ثم ضربها الثانية، ثم قال: «اللّٰهم اهد شيبة»، ثم ضربها الثالثة، فقال: «اللّٰهم اهد شيبة»، فوالله ما رفع يده من صدري من الثالثة حتى ما كان أحد من خلق الله أحب إلي منه.

وهذا عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه كان يعرض له في صلاته شيء، فذكر ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيده الشريفة على صدره ودعا له، فما حس ذلك فيما بعد. روى ابن ماجه في سننه [برقم:٣٥٤٨] عن عثمان بن أبي العاص أنه قال: لما استعملني رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على الطائف، جعل يعرض لي شيء في صلاتي، حتى ما أدري ما أصلي، فلما رأيت ذلك، رحلت إلى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقال: «ابن أبي العاص؟» قلت: نعم يا رسول الله. قال: «ما جاء بك؟» قلت: يا رسول الله، عرض لي شيء في صلاتي، حتى ما أدري ما أصلي. قال: «ذاك الشيطان، ادنه» فدنوت منه، فجلست على صدور قدمي، قال: فضرب صدري بيده، وتفل في فمي، وقال: «اخرج عدو الله»، ففعل ذلك ثلاث مرات، ثم قال: «الحق بعملك». قال: فقال عثمان: فلعمري ما أحسبه خالطني بعد.

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

من ظلال التفسير

(١٠- سورة يونس ١٦-٣٠)

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)
تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري(*)

قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦﴾

أي أتلو عليكم ما يريد الله تعالى، ويطلعكم بي على ما يريد أن يطلعكم عليه، فلو أراد خلاف ذلك هل كان لي أن أضع كلامًا من عند نفسي، وأنسبه إليه؟ أليس قد انقضت أربعون سنة من عمري بين أظهركم، وقد جربتم أحوالي كل التجربة خلال هذه المدة المديدة، وقد كانت أخلاقي الحسنة من الصدق والعفاف والأمانة والديانة ونحوها مضرب المثل بينكم. وكوني أميًا وعدم التتلمذ على معلم في الظاهر معروف ومسلم به. أرأيتم الذي لم ينسج قصيدة ولا حضر أمسية شعرية، ولا فتح كتابًا و لا تناول قلمًا، ولا جلس في مدرسة طوال أربعين سنة، أرأيتم هل يسعه أن يأتي بكلام يعجز الإنس والجن بفصاحته وبلاغته، وجزالته، وجدة أسلوبه وسلاسته؟ وتخمد علوم العالم ومعارفه كلها أمام علومه وحقائقه، ويبلغ الناس قانونًا من الهداية عالميًا متكاملًا، يعود أمامه القوانين كلها هباءً منثورًا، وينفخ في قلوب الأمم والدول الكبرى الميتة روحًا جديدًا، ويرزقهم أسباب حياة أبدية جديدة؟ هل يقبله أحد؟ أرأيتم الرجل الطيب الطاهر الذي لم يتهم بشرا بكذب خلال أربعين سنة، هل له فجأة أن يفتري على الله الكذب؟ فلابد أن نقول: إن الكلام الذي أتلوه عليكم، لا طاقة لي في وضعه أو تبليغه، ويسمعكم الله تعالى ما يشاء على لساني، وليس لأحد من الخلق أن يغير منه نقطة أو حركة من الحركات.

فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٧﴾

أي ليس للجناة والمجرمين الفلاح الحق،

(*) أستاذ الحديث والأدب العربي بالجامعة.

والأمر إليكم، فانظروا من هو الظالم المجرم، ولو سلمت فرضًا أن اختلق الكلام وأعزوه إلى الله تعالى، فلا أحد أظلم مني. ولكن الأدلة المسوقة في الآيات السابقة أكدت أن هذا الاحتمال باطل من الأساس، فحيث ثبت صدقي، وأنتم تكذبون بكلام الله جهلًا أو عنادًا، فلا أحد أظلم منكم على وجه البسيطة.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

هذا ما كان بين الله تعالى وبين رسوله. ثم انظر في عبادتهم لله تعالى. إنهم يعبدون من دون الله تعالى من لايملك نفعًا ولاضرًا، فإذا قيل لهم في ذلك، قالوا: الإله الأكبر واحد، وهو الذي خلق السماء والأرض، ولكن يجب استرضاء هذه الأصنام؛ لأنهم يشفعون عند الإله الأكبر، ويقضون حاجاتنا. ثم إن كانت حياة بعد الممات فإنهم يشفعون لنا فيها أيضًا. وأما الأمور الصغار التي يملكونها فإنها ترجع إليهم دون غيرهم، ومن هنا يجب أن نعبدهم.

فائدة:

أي ادعاء أن الأصنام شفعاء، وأن الشفيع يستحق العبادة، كلاهما ادعاء باطل منقوض الأساس، وغير خافٍ أن علم الله تعالى ليس فيه إلا ما كان حقًا وواقعًا. فكان اعتبار هذه المبادئ المخترعة و غير الواقعة وعلى خلاف التعليم الإلهي كأنه يوحي إلى أن الله تعالى لايعلم حقانية هذه الأشياء، و لايعلم وقوعها في شيء من السماء والأرض، أي لا وجود لها أصلًا، فلو كانت موجودة لعلمها الله تعالى، ولما منعهم عنها.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

وربما يقول المشركون: لعل الله تعالى منع عنها في دينك، وأما في ديننا فلم يمنع عنها، فرد عليهم بأن دين الله تعالى واحد دائمًا، ولا فرق في الاعتقادات الحقة. ولما ضل الناس خلال ذلك، أرسل الله تعالى الرسل لتوعيتهم ولصرفهم إلى الدين الحق، وما أباح الله تعالى الشرك في زمن ولا في دين من الأديان، وأما عدم القضاء على اختلافات الناس بالقوة، فلأن الله تعالى قد علم مسبقًا أن هذه الدنيا دار عمل، ومحل الوقائع، ولايقضى فيها قضاء نهائيًا قاطعًا، وقد منح الله تعالى البشر فيها الكسب والاختيار، وتركهم أحرارًا، ليختاروا ما يريدون من

المذهب، ولولا هذا القضاء السابق لقضي على الاختلافات كلها مرة واحدة.

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

أي هلا نزلت آية من الآيات التي كانوا يطالبون بها؟ فالجواب عنه أنهم قد رأوا آيات كثيرة على الصدق مسبقًا، وأما إنزال الآية المطلوبة فليس من اللازم ولا من النافع كثيرًا، فينزل الله تعالى في المستقبل ما يريد من الآيات، ولايعلم إلا الله تعالى نوع الآية التي سيظهرها في المستقبل. فانتظروا، ونحن بدورنا ننتظر، وقال في موضح القرآن: أي إن قالوا: كيف نعلم أنك صادق؟ فقال: انظروا أن الله تعالى سيظهر هذا الدين، ويذِل ويهلك أعداؤه في المستقبل، فكان ذلك. وآية الصدق فيها غُنية مرة واحدة، وإذا ذل العدو كل مرة فهو القضاء، وإن لم تكن الدنيا يوم الفصل.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

ضرب الله تعالى القحوط على أهل مكة سبع سنين، حتى كادوا يهلكون، ففزعوا إلى النبي ﷺ وطلبوا منه أن يدعو لهم، ووعدوا أنهم يؤمنون إن رفع عنهم هذا القحوط، فدعا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستجاب الله تعالى دعاءه، فرفع عنهم القحوط، فعادوا إلى ما كانوا عليه من البغي والمكر، وتكذيب آيات الله تعالى معرضين عن قدرته ورحمته؛ بل نسبوا النعم الإلهية إلى الأسباب الظاهرة والحيل ومجرد الأوهام والأخيلة، فرد عليهم: لا عليكم أن تمكروا وتتحيلوا، ولكن لايغيبن عنكم أن مكركم هذا كله مسجل، وتعرض هذه السجلات كلها عليكم يوم القيامة، ثم لايخفى شيء من مكركم على الملائكة، وأنى يخرج من علم الله تعالى المحيط. وأنتم مغترون بمكركم وحيلتكم، مع أن رد الله تعالى على مكركم أي التدبير الخفي منه تعالى أسرع تأثيرًا من مكركم وحيلتكم، ويمهل الله تعالى الجاني حتى ينتشي بالغفلة، فلا يخطر بباله العقوبة، حتى إذا عيل شقاؤهم أخذهم فجأة بتلابيبهم. فعلى العاقل ألا يغتر بالرفق والحلم من الله تعالى وبالأوضاع الحسنة، فلايدري مدى الشدة التي تعقب الرفق واللين، كما ضرب على ذلك مثلًا بالرحلة البحرية. ويقول الشاه -: ينظر المرء في الشدة إلى الله تعالى دون الأسباب، فما إن زالت عنه الشدة وصلح أمره، فإنه ينسى الله تعالى وينظر إلى

الأسباب، ولايخاف أن يسلط الله تعالى عليه مرة أخرى سببًا من أسباب الشدة نفسها، فإن زمام الأسباب كلها بيده سبحانه وتعالى، فضرب لاحقًا وجها من ذلك متمثلًا في الرحلة البحرية.

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

أي كان الهواء رائعًا وموافقًا في أول الأمر، والركاب يسيرون في راحة يتضاحكون، وفجأة هبت ريح عاصفة، وصدمت السفينةَ جبال من المياه من كل جانب، فلما أيقنوا أنهم عادوا في فم الموت من كل جهة، ولا سبيل إلى الفرار والتخلص منها، أعرضوا عن الآلهة المفروضة كلها إلى نداء الله الواحد، وهو مقتضى أصل الفطرة والطبيعة، ويئسوا من كل شيء، وعبدوا الله تعالى وحده، ووعدوا مواعيد قاطعة بأن الله تعالى إن أنجاهم من المصيبة؛ شكروا له دائمًا، ولم يكفروا به، ولكن ما إن أمنوا ووطئوا الساحل بأقدامهم إلا عادوا إلى بغيهم، وعاثوا في البلاد وعتوا عتوًا كبيرًا، ولم يستمروا على هذا العهد ولو لحظة.

تنبيه:

في هذه الآية الكريمة عبرة كبيرة لأدعياء الإسلام الذين يستغيثون غير الله تعالى الواحد و يدعونهم حتى حين أحيطوا بالطوفان من كل جانب في السفينة. ولم يسلم عكرمة بن أبي جهل بعد فتح مكة، وفر منها حتى ركب سفينة بحرية، فلم تسِر السفينة إلا قليلًا حتى أحاطت بها الرياح العاصفة من كل جانب، فقال الملاح: ادعوا ربًّا واحدًا، ولايغني هنا آلهتكم من جوع، فقال عكرمة: أليس هذا هو الله الذي يدعونا إليه محمد-ﷺ-، وإذا كان لاينجي في البحر غير رب محمد، فإنه يستحيل النجاة حتى في البر من غير عونه و مساعدته، اللّٰهم إن أنجيتني من هذه المصيبة، عدت ووضعت يدي في يد محمد -صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، راجيًا أنه يعفو عني بخلقه الكريم، فدخل على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودخل في دين الإسلام.

فائدة:

أي إن بغيكم على أنفسكم وباله، وهب أنكم

تمتعتم بالدنيا أيام بغيكم، فإن مصيركم إلى الله تعالى، فسترون ما قدمتم إليه، ويعاقبكم الله تعالى وينبئكم بما كسبت أيديكم.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

حمل بعضهم قوله تعالى: (فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ) على كثرة الإنتاج، فإن إنتاج الأرض إذا قوي كثيرًا، اختلط والتف بعضه ببعض، وحمل بعضهم الباء في قوله: (بِهِ)على المصاحبة، أي اختلط نبات الأرض بالماء؛ لأن النباتات تتشرب الأجزاء المائية، كما أن الطعام يعود جزءا من البشر، كذلك الماء غذاء للنباتات. ويترشح من صنيع المترجم رحمه الله أنه يريد بالاختلاط أن النبات الذي يخرج بامتزاج الأرض والماء يختلط فيه غذاء الآدمي والحيوان، مثلًا نجمت الحنطة فيها حبة وهي غذاء الإنسان، وفيها عصف وهو غذاء الحيوانات، كذلك الأشجار فيها الثمار والأوراق، وآكل كل واحد منهما مختلف عن غيره.

فائدة:

أي زين الأرض بأنواع وألوان من النباتات، ونضج الزرع حتى أيقن أصحابه أنه قد حان وقت الاستفادة منه.

فائدة:

أي أصابه فجأة آفة من إعصار أو برد أو جراد ونحو ذلك - بأمر الله تعالى ليلًا أو نهارًا، فأتت على الزرع كله، كأنه لم يكن ثمة تبنة فيه. فقِس على مثاله الحياة الدنيا أنها مهما بدت جميلة رائعة، حتى افتتن السفهاء برونقها وبهائها وغفلوا عن الحقيقة، ولكن رونقها وبهاؤها وبهجتها هذه على وشك الزوال والفناء، وتعود نسيًا منسيًا في أيام قلائل. وقام الشاه رحمه الله بتطبيق هذا المثال على الحياة الإنسانية بألطف أسلوبه وأروعه، بأن الروح أتت من السماء مثل الماء، فامتزجت بالجسد الترابي وتقوت، فظهر الآدمي باختلاطهما، ثم عمل أعمالا إنسانية وحيوانية معًا، فلما برع في كل فن، ووثق أهله به، فاجأه الموت، فجعل كل ما تحقق هباء منثورا، ثم عاد لا عين له ولا أثر، كأنه لم يغن بالأرض أبدًا.

فائدة:

وإنما قال: (لَيْلًا أَوْ نَهَارًا) لأن الليل وقت غفلة، والنهار وقت انتباه الناس في الغالب، والمعنى: إذا جاء أمر الله تعالى فإنه لايحول دونه شيء في حال من الأحوال نومًا أو انتباهًا، وغفلة أو يقظة.

وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾

أي إياكم أن يسيل لعابكم إلى الحياة الدنيوية الزائلة الفانية، وأقبلوا إلى دارالسلام - الجنة-، والله يدعوكم إلى دار السلام، ويرشدكم إلى السبيل التي تؤديكم إليها، وهي الدار التي يسلم أهلها دائمًا من الهم و الحزن، والشدة والمشقة، والآفة والفناء والزوال نحو ذلك، ويسلم عليهم الملائكة، ولهم أيضًا سلام من عند ربهم.

لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

أي لمن عمل حسنة دارٌ حسنةٌ وهي الجنة، ولهم مزيد عليها، أي رضوان الله تعالى ورؤيته. وورد تفسير الزيادة بالرؤية في عدد من الأحاديث الصحيحة، وعن كثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم. فعن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تلا هذه الآية: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه. فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟». قال: «فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم». رزقنا الله سبحانه وتعالى بمنه وفضله.

فائدة:

أي كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من الذل والقتام، لايعتري ذلك وجوه أهل الجنة؛ بل يسود وجوههم نضرة ونور بدلًا من القترة والإهانة.

وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٖ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

أي لايزيد جزاؤهم على السيئة، ولله تعالى أن ينقص من عقوبتهم أو يعفو عنهم عفوًا.

فائدة:

أي يسود وجوههم قتر وظلمة حتى كأن الليل

المظلم سلط عليها. (أعاذنا الله منهما).

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

أي من تزعمونهم شركاء لله تعالى أو من اتخذتموهم بنات الله تعالى، كالمسيح عليه السلام مثلًا، فإنه عند النصارى ابن الله أو عين الله، وكالملائكة والأحبار الذين رفعوهم إلى منزلة الإله، وكالأصنام والأوثان التي قسم المشركون عليها صلاحيات الإله، فكل واحد منهم يؤمر بالقيام في مكانه حسب درجته.

فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾

أي يواجهون اضطرابًا شديدًا، وكل منهم يقول: نفسي نفسي، ويتفرق العباد عمن عبدوهم، وتُقطع الصلات التي كانوا يعقدونها على وفق أوهامهم وخيالاتهم، وفي مثل هذا الوضع المخيف وقد كان المشركون عقدوا آمالا بمن اتخذوهم آلهة في زعمهم، فإن هؤلاء الآلهة يردون عليهم ردًا صريحًا بأنه لا علاقة لنا بكم، وأنتم تكذبون في دعواكم أنكم كنتم تعبدوننا، (فالذي كنتم تعبدونه في عقيدتكم وتقترحون له صفات الله تعالى، لم يتصفوا بذلك في الواقع، فلم تكن هذه العبادة في الواقع عبادة للمسيح أو الملائكة ولا للأصنام الميتة في الواقع. وإنما كنتم تعبدون محض خيالكم و أوهامكم عبادةَ الشيطان اللعين وتسمون الملائكة أو الرجل الصالح أو صورة من الصور)، والله يشهد أنكم لم تقترفوا هذا السوء برضانا أو بإذن منا. وما الذي يُدرينا أنكم بمنتهى سفهكم وحمقكم تتخذوننا آلهة من دون الله تعالى.

تنبيه:

ولا إشكال على هذا الحوار إذا جعلناه بين المسيح عليه السلام وغيره وبين المخلوق ذي العقل. وإن كان مع الأصنام فإنه لايستبعد أن يودع الله تعالى بقدرته الكاملة أصنام الحجر النطق لبيان منتهى يأس وحسرة وعجز المشركين: (قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ) [فصلت:٢١].

هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

أي تذهب الأوهام الكاذبة الباطلة هباء منثورًا، ويشاهد كل أحد بأم عينيه أنه لا مرد إلا إلى هذا الرب الحق، ويعرف كل إنسان ما لأعماله السيئة من الوزن.

الإسلام دين الإخاء

بقلم: الشيخ/ عبد العزيز محمد عيسى

كان المجتمع الإنساني في جزيرة العرب وما حولها قبيل بعثة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مجتمعًا مضطربًا بعيدًا عن الاستقرار والاعتدال والمثالية، يقل فيه التعاون على البر، والتناصر لمصلحة الجماعة. ويسوده التفكك في صلة أبنائه بعضهم ببعض، والانحلال في الأخلاق والروابط، وتتغلب على أفراده نوازع الأثرة وحب الذات، لا يعرف أكثرهم إلا ما يرضى نفسه وحسه، وإلا ما يشبع غرائزه الدنيا وعواطفه الفردية ويكثر فيه بغي القادرين على العاجزين، وانتقام الأقوياء ممن دونهم، وطغيان ذوي السلطان والنفوذ على من حرموا من ذلك اعتزازًا بمالهم من قوة أو جاه، أو كثرة عددية، أو عصبية قبلية.

كان الفرس والروم – وهما دولتا العالم المتنازعتان على سيادته إذ ذاك – تعمهما الفوضى، وتسيطر عليهما الأهواء، وتحكمهما الشهوات، وتجري بينهما المعارك التي يستهان فيها بالدماء والأرواح، وتستباح فيها الأموال والأعراض والحرمات، كل واحدة منهما ترجو أن تكون هي الغالبة، وأن تكون هي صاحبة الكلمة النافذة والراية الخفاقة على الأرض، إرضاء لشهوة، لا نشرًا لفكرة، ولا دفاعًا عن عقيدة.

مجتمع جاهلي

وكان العرب – بين هاتين الدولتين – أمة قد وقعت بين أبنائها الفرقة، واختلفت الكلمة، وانحلت عرى الألفة، وعزَّ أن تخضع لمنطق أو تدين بقانون، أو تعترف لأحد بسلطان تنقاد لنفوذه وتعمل على تثبيته. وأصبح أبناء القبائل من أجل ذلك لا يعرف أحد منهم لأحد حقًا، إلا ما أثبتته القوة، أو ما أملته العصبية أو النعرة الجاهلية.

كانوا – في الأعم الأغلب من أحوالهم – متدابرين متقاطعين، قلما تقرب الرحم قلوب بعضهم إلى بعض، أو ينعطف الجوار بإحسان أحد إلى أحد كانوا يتنادون إلى السلاح أن سفه أحد رأي غيره، أو غلبت فرسه فرسه في سباق أو نحوه، أو ذكر واحد بعض ما كان بين الأسلاف من ترات

ومعـارك، وتـدور بينهم الحـروب السنين الطـوال، تهلـك شـبابهم وشـيبهم، وتـأتي عـلى أخـضرهم ويابـسهم، لأحقـر الأمـور وأتفـه الأسـباب. وفـيما حدَّثت به مصادر التأريخ مما كان في حرب البسوس التي استمرت أربعين عامًا، والسبب قتل كليب بن ربيعة ناقة البسوس بنت منقذ، ومما كان بين عبس وذبيـان في حـرب داحـس والغـبراء، وهمـا فرسـا الرهـان، والـسبب صـد أحـد الفرسـين عـن الغايـة ليسبق الأخر، ومما كان في أيام معاركهم ووقائعهم كيوم بعاث بين الأوس والخزرج، وغيره من أيامهم ما يشهد على ذلك ويفصح عنه.

وكـانوا إلى ذلـك خاضـعين في حيـاتهم العامـة والخاصـة لأفكـار رديئـة، أفقـدتهم أرق العواطـف الإنسانية وأحسنها، وحرمتهم آثارها الطيبة بالنسبة إلى الأفراد والمجتمع، وسلكت بهم سبلا بعيدة عن التهذيب والاعتدال. ألـم يكـن مـن دأبهـم الانـدفاع للأخذ بالثأر في غير عدل ولا عقل، وحرصهم على ذلك مهما طال الزمن وتغيرت الأوضاع؟ ألـم يكن فيما كـان مـن تـصرفاتهم المعيبة قتـل أولادهـم سفهًا بغير علـم، ووأد بناتهم خشية عـار متـوهم وخـوف إملاق مظنون؟؟

نعـم كـان العـرب – بـين هـاتين الـدولتين – كـذلك وأكثـر مـن ذلـك زمنـا تعاونـت فيـه ظـروف الأحـوال على تضييع معالم الرسالات السابقة وآثار هداية السماء، ثم شاءت حكمة الله تعالى – على حين فـترة مـن الرسـل – رحمـة بعبـاده، وسـيرًا بهـم عـلى الصراط السوي، وأخذًا بيدهم إلى ما يريد لهم من الصلاح والخير أن ينشلهم من البلاء الذي تورطوا فيه، وينقـذهم مـن الآلام التي ألقـوا بأيديهم إليهـا. فأرسـل إليهم رسـوله محمـدا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالهـدى ودين الحق بكتاب عربي مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، يهـدي بـه الله مـن اتبـع رضـوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم.

فنادى فيهم كما أمره ربه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُـولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُـمْ جَمِيعًـا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْـكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُـحْىِۦ وَيُمِيـتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِـٱللَّهِ وَرَسُـولِهِ ٱلنَّـبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُـؤْمِنُ بِـٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِـهِۦ وَٱتَّبِعُـوهُ لَعَلَّكُـمْ تَهْتَـدُونَ﴾ (الأعراف:١٥٨)، فآمنوا، فنقلهم ذلك الإيمان من صفات الشر، التي كانوا عليها إلى خلال الخير، التي هداهم الإسلام إليها، وأخرجهم من ظلمات الشرك والجهـل إلى نـور التوحيـد والمعرفـة، وأبـدلهم مـن القسوة والغلظة وحب الانتقام وجمود العواطف رقةً ورحمةً، ولينًا ومودةً، وإيثارًا وأخوة؛ ليكونوا بذلك أسوة لمن عاصرهم، ومثلًا لمن يجيء بعدهم،

وليجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وخير قدوة لمن أراد الاقتداء. ثم امتنَّ عليهم بذلك فكان أبرز ما لفت الأنظار إليه في هذا الامتنان ما منحهم من صفة الإخاء: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (آل عمران:١٠٣).

نعم جعلهم إخوانًا متحابين، بعد أن كانوا أعداء متحاربين، جعلهم أبناء مجتمع متعاون متكافل متضامن: يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، بعد أن كانوا ذوي أنانية وشح وأثرة، ونبه فيهم عواطف الأخوة الإنسانية، وبواعث المودة واللين والرحمة، بعد أن كانت عواطفهم غليظة قاسية، لا تعرف أخوة، ولا ترق لبنوة، ولا تخضع لإنسانية.

ثم حدثهم القرآن عن أخوة الإسلام وما ينبغي لها ليظل معنى الإخاء آخذًا بأنفسهم، ماثلًا أمامهم متمكنًا من حنايا صدورهم، ولتكون أعمالهم وتصرفاتهم في دائرة ما يحفظ هذا الإخاء، وينميه ويعين عليه، ويرعى بقاءه ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات:١٠). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ (الحجرات:١١) ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ (التوبة:٧١) ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ (الحشر:١٠).

وحدثهم الرسول الأمين صلوات الله عليه عن هذه الأخوة في المناسبات المتعددة حديثًا مستفيضًا موجهًا؛ ليظلوا حرصاء عليها، ممكنين لها، ساعين في تعزيزها، راغبين في تحصيل ثمارها ومغانمها: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم». «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله ولا يحقره». «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه». «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته». «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا». «المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى».

التشريع يدعم الإخاء

وجاءت تشريعات الإسلام في عباداته ومعاملاته تؤكد معنى الإخاء، وتعلنه، وتقوي

عاطفته، وتحمل على رعايته والاعتزاز به.

فالصلاة تدعو إليه حين يحاذي بين المناكب في صفوفها الحاكمون والمحكومون، والواجدون والمحرومون، والأقوياء والضعفاء، والشباب والشيب، لا حواجز ولا مراتب ولا درجات، وتعلن عنه حين ينتظم الجمع خلف واحد منهم يقومون بقيامه، ويركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده، ولا يخرجون من صلاتهم قبل خروجه.

إن هذا لمظهر رائع من مظاهر الأخوة يطامن من أنفس المتعالين، ويلفت نظرهم إلى تماثلهم مع غيرهم في هذه الأخوة حينًا بعد حين، فيقربهم إليهم، ويقبل بهم عليهم، وهو في الوقت نفسه يرفع من أنفس الإخوة الآخرين، ويعلي من معنوياتهم حين يشعرهم بالتساوي مع أولئك الذين تحاول مظاهر الحياة الدنيا أن تبعدهم أو تبعد عنهم معاني الأخوة، وتحمل الناس على نسيانها.

والصيام يعزز معناه ويبرزه، حين يسوي في فريضته بين العامة والخاصة، والسادة والسوقة، والرجال والنساء، والأغنياء والفقراء. وينادي به حين يرى الكل أنفسهم سواء أمام فريضته، وسواء أمام نظامه وأحكامه، لكل منهم أن يأكل، ويشرب حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر. فإذا تبين ذاك كان الإمساك فريضتهم جميعًا إلى الليل، يستوي في ذلك كل من لزمه الصوم، ووجب عليه أداؤه من العامة كان أو من أصحاب الجاه والسيطرة. لا يفتدي أحد منهم نفسه من ذلك بمال، ولا يتميز على غيره بمنزلة أو سلطان.

والزكاة تعاون وتكافل واشتراك أو اشتراكية ينبعث عن هذه الأخوة ويجري بَيْنَ الناس أثرًا لها واستجابة لعاطفتها ودواعيها.

والحج يفصح عن ذلك، وينادي به في شعائره ومظاهره: في الإحرام على طراز واحد، والطواف حول بيت واحد، والسعي في مكان واحد، والوقوف في صعيد واحد، والرمي في اتجاه واحد، والتلبية والدعاء على نظام واحد، والتوجه بذلك كله إلى إله واحد، ليشعروا من ثنايا ذلك وهديه بمعنى الإخاء، ويستجيبوا إليه، وتكون تصرفاتهم في إطاره وفي دائرة ما يحققه، ويرفع من شأنه.

وفي جانب المعاملات ورد النهي عن أن يبيع الرجل على بيع أخيه حتى يترك البائع قبله أو يأذن، أو أن يخطب على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن. وروى الأئمة: «لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكتفئ ما في إنائها، فإنما رزقها على الله» ولكل ما قدر لها، ولو تتبعنا أنواع العبادات والمعاملات أو أكثرها لوجدناها تهدف إلى تحقيق معنى الإخاء، وتأخذ الناس به، وتحملهم عليه.

وقد كان عمله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أصحابه خير ما يمكن في هذا الشأن، وأعظم قدوة يقتدى بها تنفيذًا للسياسة الإسلامية الحكيمة في إعلان شعار تجتمع الأمة حوله، وتخير مبدأ قويم تلتقي عنده، يربط بين قلوب أبنائها، ويوجه إلى هدفها المقصود، ويدعو إلى فكرتها السامية، ويبعد عنها معاني العصبية والجنسية واللونية والإقليمية. فكان ذلك هو الإخاء الذي أرسى دعائمه رسول الله ﷺ منذ أن استقر في المدينة المنورة ليجمع به كلمة المسلمين، ويقضي به على كل خلاف كان أو يكون بينهم على مر السنين.

ولهذا آخى صلوات الله وسلامه عليه بين الأوس والخزرج مؤاخاة عامة، وهما قبيلتا يثرب الكبيرتين المتنازعتين، المعروفتين بمعاداة كل منهما للأخرى، إلى أن جاء الإسلام، كما آخى هذه المؤاخاة العامة بين المهاجرين والأنصار وهم أهل بلدين مختلفين، لم يسبق أن كان بينهما وفاق أو اشتراك في خير، إلى أن كانت هذه المؤاخاة، فكان من حسن تقبل الأنصار لها، وجميل تصرف المهاجرين في أمرها، ما جعلها المثل الأعلى في الصلاة الإنسانية، وما جعل القرآن الكريم يشيد بها في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر:٩).

وزيادةً على هذه المؤاخاة العامة دعا رسول الله ﷺ إلى التآخي في الله: اثنين اثنين، فكان هو وابن عمه علي بن أبي طالب أخوين، وعمه حمزة بن عبد المطلب ومولاه وحبه زيد بن حارثة الكلبي أخوين. وصدِّيقه أبو بكر بن أبي قحافة وصاحبه خارجة بن زيد الأنصاري أخوين، وعمر بن الخطاب العدوي القرشي وعِتْبان بن مالك العوفي الخزرجي أخوين، وسعد بن الربيع الأنصاري وعبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري أخوين.

إباء وشمم

ويجمل بنا ونحن نتحدث عن الإخاء، ونذكر ما كان من المؤاخاة بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن ابن عوف أن نشير إلى ما روى البخاري في شأنهما مما يتحدث عن الإيثار في أكمل مظاهره، وعن علو الهمة، وعدم اغتنام الفرصة التي قد يرنو إليها آلاف الرجال ترفعًا بالنفس أن تكون كلًّا على غيرها.

ذلك أن عبد الرحمن لم يكن يملك بالمدينة أول مقامه بها مالًا ولا غيره، وأن سعدا كان من سراتها وأصحاب الثروة فيها، ومن أكثر الأنصار مالًا، وقد عرض على عبد الرحمن نصف ماله – على وفرته –

يعطيه إياه طائعًا مختارًا دون بدل أو عوض كما عرض عليه – وفاء بحق الإخاء – أن يطلق من أجله إحدى زوجتيه أو أعجبهما إليه. حتى إذا حلت تزوجها. فأبى عبد الرحمن شاكرًا داعيًا، قائلًا له: بارك الله لك في أهلك ومالك، وطلب إلى الحاضرين أن يدلوه على سوقهم فدلوه على سوق بني قينقاع: سوق المدينة إذ ذاك فأخذ يتردد عليه، ويتابع الغدو والرواح إليه، يبيع ويشتري، مبتدئًا ببعض أصناف الطعام، ثم لم يلبث كثيرًا حتى صار من كبار التجار، وأخذت رواحل تجارته وقوافلها تجوب نواحي الجزيرة العربية بالسلع المختلفة، وترجع إليه بالمال الوفير من كل جهة، وأصبح من أغنياء المدينة، يتزوج إحدى بنات الأنصار، ويمهرها وزن نواة من ذهب، ويتصدق بنصف ماله، ثم يتبع ذلك بأربعين ألف دينار من النصف الباقي له، ثم يحمل في سبيل الله على خمس مئة فرس وخمس مئة راحلة، ثم يعتق عشرات الآلاف من الأرقاء شكرًا للنعمة وابتغاءً لوجه الله.

استطردت بالإشارة إلى ذلك لألفت النظر إلى هذا اللون من الإخاء الذي بلغ هذا الحد من الإيثار، وإلى هذا اللون من الإباء والعزوف عن ثروة غير منتظرة، ونعمة غير مترقبة، ترفعًا بالنفس وعلو همة كانا طريقا قصيرة ممهدة إلى الغنى العريض والثروة الواسعة، والعمل الكريم.

وأعود بعد ذلك إلى هذه المؤاخاة الثنائية التي دعا إليها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وشارك فيها. لقد أراد صلوات الله وسلامه عليه بهذا اللون من المؤاخاة أن يكون كل واحد من أبناء الأمة عضوا في خلية ثنائية متنقلة متكررة تبذل طاقاتها لصالح المجتمع، وتعمل له، وتسعى لخيره، وتدرأ عنه الشر والفساد وعوامل السوء، ولعله أراد أن يلفت نظر المسلمين بعد عصره إليها، ليحققوا في مجتمعاتهم ما حققته في المجتمع الإسلامي الأول، من إسعاد أبنائه، وإصلاح أمرهم، والترفيه عنهم، وتحقيق التعاون بينهم على البر والتقوى. ولعل أبناء الأمة الإسلامية الآن يحيون هذه المؤاخاة الثنائية في الله على نحو ما كانت يوم شرعها رسول الله، ويتحلون بها، ويحققون معانيها، فيسعد بهم مجتمعهم، وتنهض بهم أمتهم، ويصبحوا يدًا على من سواهم.

أخوة عامة

وإمعانًا في الدعوة إلى الإخاء – شارة المجتمع الإسلامي وشعاره – نبه الإسلام أبناءه على الأخوة الإنسانية وزينها في قلوبهم، فبين لهم أن الناس سواسية، وأنهم جميعًا من جنس واحد: من سلالة من طين، وأنهم يرجعون إلى أصل واحد، لا يفضل أحدٌ منهم فيه أحدا: كلهم لآدمَ وآدم من تراب، لا

فضل لأبيض على أسود ولا لعربي على عجمي إلا بعمل ينفع المجتمع ويرفه عنه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ (الحجرات:١٣).

وجه الإسلام أبناءه إلى هذه الأخوة الإنسانية العامة، ترفعًا بهم عن معاني العصبية البغيضة، وتقريبًا للقلوب، وليدفع عنهم سيطرة الغرائز الحيوانية الدنيا، وما تدعو إليه من الأثرة والغيرة والشك، وحب السيطرة والتغلب على المخالفين للمبدأ والفكرة، وليحملهم بذلك على الإسهام في إيجاد مجتمع مثالي نظيف متعاون متكافل، يسوده العقل، ويسيطر عليه العدل، وتصرف شؤونه عواطف الخير والمحبة والإنصاف، ويتلاقى الناس فيه على أنهم جميعًا خلق إله واحد، وأبناء أب واحد، وأصحاب أهداف متقاربة ومصالح متشابكة.

ولعل الإسلام هو الدين الوحيد الذي أقر الأسس وأوضح المعالم في هذا الشأن حين جاء في تعاليمه بالنسبة إلى مخالفيه من أهل الكتاب: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» وحين ترفع عن العنصرية فأجاز أكل ذبيحة الكتابي، وأوجب قتل المسلم بالذمي؛ بل حين ترقى، فأذن للمسلم أن يتزوج الكتابية مع تركها حرة في بقائها على دينها، وإباحته لها أداء تكاليفه والتعبد على طريقتها في كنيسته وحين وجه أبناءه عامة أن يترفقوا بهؤلاء، ويحسنوا إليهم: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ (الممتحنة:٨).

هذا هو الإخاء كما يدعو إليه الإسلام وأنه لمبدؤه الخالد، وشعاره الواضح، وعمل أهله الذي لا ينكر، منذ ألف وأربع مئة عام، وعلى امتداد هذا التأريخ الطويل، دون ما تنكر له أو إغضاء من شأنه أو انحراف عنه أو خروج على قواعد تطبيقه من جانبهم، مع ترفع عن مقابلة الشر بالشر أو الإساءة بمثلها.

فأين من ذلك ما يزعمه الفرنسيون بعد أن قاموا بثورتهم المشهورة وما يتغنون به ويتغنى به كتابهم وذوو الأقلام فيهم من أنهم أصحاب مبدأ الإخاء، والداعون إليه، والمنادون به أواخر القرن الثامن عشر، وقد عرف العالم كله ما لهم من فظائع تبطل دعواهم وتطعنها في الصميم. وفيما كان من أمر البلاد التي شقيت بحكمهم لها واستعمارهم إياها، وفيما خضبت به أرض الجزائر من دماء الشهداء: رجالهم ونسائهم وشبابهم وكهولهم، على مدى سبع سنوات شداد، بله ما سبقها ما يرد على هؤلاء الزاعمين، ويسكت أصوات المتغنين.

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(٥- المائدة: ٦-٢٩)

بقلم: **رئيس التحرير**

٧- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦]

في الآية بدهيتان:

١- فإن قيل: ما فائدة هذه الآية وقد صحت الآثار بأن الوضوء والغسل شرعا مع وجوب الصلاة، وبأن التيمم شرع في غزوة المريسيع؟

أثار هذا السؤال ابن عاشور وأجاب عنه قائلًا: إذا جرينا على ما تحصحص لدينا وتمحّص: من أنّ سورة المائدة هي من آخر السور نزولًا، أنّها نزلت في عام حجّة الوداع، جَزمنا بأنّ هذه الآية نزلت هنا تذكيرًا بنعمة عظيمة من نعم التّشريع: وهي منّة شرع التيمّم عند مشقّة التطهُّر بالماء، فجزمنا بأنّ هذا الحكم كلّه مشروع من قبْل، وإنَّما ذُكر هنا في عداد النّعم الّتي امتنّ الله بها على المسلمين، فإنّ الآثار صحّت بأنّ الوضوء والغسل شرعا مع وجوب الصّلاة، وبأنّ التيمّم شرع في غزوة المريسيع سنة خمس أو ستّ. وقد تقدّم لنا في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ (في سورة النّساء:٤٣) الخلاف في أنّ الآية الّتي نزل فيها شرع التيمّم أهي آية سورة النّساء، أم آية سورة المائدة؟ وذكرنا هنالك أنّ حديث الموطأ من رواية مالك عن عبد الرحمان ابن القاسم عن أبيه عن عائشة ليس فيه تعيين الآية ولكن سَمّاها آية التيمّم، وأنّ القرطبي اختار أنّها آية النّساء؛ لأنّها المعروفة بآية التيمّم، و كذلك اختار الواحدي في «أسباب النّزول» وذكرنا أنّ صريح رواية عمرو بن حُريث عن عائشة: أنّ الآية الّتي نزلت في غزوة المريسيع هي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ الآية، كما

أخرجه البخاري عن يحيى عن ابن وهب عن عمرو ابن حريث عن عبد الرحمان بن القاسم، ولا يساعد مختارنا في تأريخ نزول سورة المائدة، فإن لم يكن ما في حديث البخاري سهوًا من أحد رواتِه غير عبدِ الرحمان بن القاسم وأبيهِ، أراد أن يذكر آية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾. وهي آية النّساء(٤٣)، فذكر آية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ الآية. فتعيّن تأويله حينئذ بأن تكون آية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ قد نزلت قبل نزول سورة المائدة، ثُمّ أعيد نزولها في سورة المائدة، أو أمر الله أن توضع في هذا الموضع من سورة المائدة، والأرجح عندي: أن يكون ما في حديث البخاري وهمًا من بعض رواته؛ لأنّ بين الآيتين مشابهة.

فالأظهر أنّ هذه الآية أريد منها تأكيد شرع الوضوء وشرع التيمّم خلفًا عن الوضوء بنصّ القرآن؛ لأنّ ذلك لم يسبق نزول قرآن فيه؛ ولكنّه كان مشروعًا بالسنّة. ولا شكّ أنّ الوضوء كان مشروعًا من قبل ذلك، فقد ثبت أنّ النّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يصلّ صلاة إلاّ بوضوء. قال أبو بكر بن العربي في «الأحكام» «لا خلاف بين العلماء في أنّ الآية مدنية، كما أنّه لا خلاف أنّ الوضوء كان مفعولًا قبل نزولها غير متلوّو لذلك قال علماؤنا: إنّ الوضوء كان بمكّة سنّة، معناه كان بالسنّة. فأمّا حكمه فلم يكن قطّ إلّا فرضًا» وقد روى ابن إسحاق وغيره أنّ النّبي ﷺ لمّا فرض الله سبحانه عليه الصّلاة ليلة الإسراء، ونزل جبريل ظُهْر ذلك اليوْم ليصلّي بهم، فهمز بعقبه فانبعث ماء وتوضّأ معلِّمًا له، وتوضّأ هو معه، فصلّى رسول الله ﷺ، وهذا صحيح وإنْ كان لم يروه أهل الصّحيح؛ ولكنّهم تركوه لأنّهم لم يحتاجوا إليه اهـ.

وفي «سيرة ابن إسحاق» ثُمّ انصرف جبريل فجاء رسول الله ﷺ خديجةَ فتوضّأ لها ليريها كيف الطُهور للصّلاة كما أراه جبريل اهـ. وقولهم: الوضوء سنّة، روي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وقد تأوّله ابن العربي بأنّه ثابت بالسنّة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا. قال بعض علمائنا: ولذلك قالوا في حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: فنزلت آية التّيمّم؛ ولم يقولوا: آية الوضوء لمعرفتهم إيّاه قبل الآية.

فالوضوء مشروع مع الصّلاة لا محالة، إذ لم يذكر العلماء إلاّ شرع الصّلاة، ولم يذكروا شرع الوضوء بعد ذلك، فهذه الآية قرّرت حكم الوضوء ليكون ثبوته بالقرآن. وكذلك الاغتسال فهو مشروع من قبل، كما شرع الوضوء؛ بل هوأسبق من الوضوء؛ لأنّه من بقايا الحنيفية الّتي كانت معروفة

حتّى أيّام الجاهليّة، وقد وضّحنا ذلك في سورة النّساء. ولذلك أجمل التّعبير عنه هنا وهنالك بقوله هنا: ﴿فَٱطَّهَّرُواْ﴾، وقوله هنالك: ﴿تَغْتَسِلُواْ﴾ (النساء:٤٣)، فتمحّضت الآية لشرع التيمّم عوضًا عن الوضوء. وذكره – أيضا – القرطبي(١).

٢- فإن قال قائل: وماوجه تكرير قوله: (أوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ) إن كان معنى اللمس الجماع، وقد مضى ذكر الواجب عليه بقوله: (وإنْ كُنْتُمْ جُنُبا فاطَّهَرُوا)؟

أثار هذا السؤال الطبري وأجاب عنه، فقال: وجه تكرير ذلك أن المعنى الذي ذكره تعالى من فرضه بقوله: (وإنْ كُنْتُمْ جُنُبا فاطَّهَرُوا) غير المعنى الذي ألزمه بقوله: (أوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ) وذلك أنه بين حكمه في قوله: (وإنْ كُنْتُمْ جُنُبا فاطَّهَرُوا) إذا كان له السبيل إلى الماء الذي يطهره فرض عليه الاغتسال به ثم بين حكمه إذا أعوزه الماء فلم يجد إليه السبيل وهو مسافر غير مريض مقيم، فأعلمه أن التيمم بالصعيد له حينئذ الطهور(٢).

٨- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

فإن قلت: قد تقدم نظير هذه الآية في النساء [١٣٥] فما فائدة إعادتها هنا، وما فائدة تقديم (بالقسط) في النساء وتأخيره هنا؟

قلنا: الجواب من وجهين:

الأول: كرره لاختلاف السبب؛ فإن الأولى نزلت في المشركين وهذه في اليهود، فقد ورد أن النبي ﷺ ذهب إلى يهود بني النضير يستعينهم في دية، فهموابقتله، فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد، وقتادة. ذكره البيضاوي، وابن الجوزي، والآلوسي(٣).

الثاني: كرره لمزيد الاهتمام بالعدل والمبالغة في إطفاء ثائرة الغيظ. ذكره البيضاوي، و الآلوسي(٤). وأما سبب تقديم قوله: (بالقسط) في النساء وتأخيره هنا فقال أبوحيان: وهذا من التوسع في الكلام والتفنن في الفصاحة. ويلزم مَن كان قائمًا لله أن يكون شاهدًا بالقسط، ومن كان قائمًا بالقسط أن يكون قائمًا لله، إلا أنَّ التي في النساء جاءت في معرض الاعتراف على نفسه وعلى الوالدين والأقربين، فبدئ فيها بالقسط الذي هو العدل والسواء من غير محاباة نفس ولا والد ولا قرابة، وهنا جاءت في معرض ترك العداوات والإحن، فبدئ فيها بالقيام لله تعالى أولًا؛ لأنه أردع للمؤمنين، ثم أردف بالشهادة بالعدل، فالتي في معرض المحبة والمحاباة بدئ فيه بما هو آكد وهو القسط، وفي معرض العداوة والشنآن بدئ فيها

بالقيام لله، فناسب كل معرض بما جيء به إليه. وأيضًا فتقدم هناك حديث النشوز والإعراض وقوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ﴾ وقوله: ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فناسب ذكر تقديم القسط، وهنا تأخر ذكر العداوة فناسب أن يجاورها ذكر القسط، وتعدية (يجرمنكم) بعلى إلا أن يضمن معنى ما يتعدى بها، وهو خلاف الأصل(٥).

وأما ابن عاشور فقال: ووجه ذلك أنّ الآية الّتي في سورة النّساء وردت عقب آيات القضاء في الحقوق المبتدأة بقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ (النساء:١٠٥)، ثمّ تعرّضت لقضية بني أبيرق في قوله: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء:١٠٥)، ثمّ أردفت بأحكام المعاملة بين الرّجال والنّساء، فكان الأهمّ فيها أمرَ العدل فالشهادةِ. فلذلك قدّم فيها ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ (النساء:١٣٥) فالقسط فيها هو العدل في القضاء، و لذلك عدّي إليه بالباء، إذ قال: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾ (النساء:١٣٥).

وأمّا الآية الّتي نحن بصدد تفسيرها فهي واردة بعد التذكير بميثاق الله، فكان المقام الأوّل للحض على القيام لله، أي الوفاء له بعهودهم له، ولذلك عدّي قوله: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾ باللام. وإذ كان العهد شهادة أتبع قولُه: ﴿قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ﴾ بقوله: ﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾، أي شهداء بالعدل شهادة لا حيف فيها،وأولَى شهادة بذلك شهادتهم لله تعالى. وقد حصل من مجموع الآيتين:وجوب القيام بالعدل،والشهادة به، ووجوب القيام لله،والشهادة له(٦).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:١٢]

في الأية بدهيتان:

١- فإن قلت: قوله: ﴿وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ دخل تحت إيتاء الزكاة، فما الفائدة في الإعادة؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: المراد بإيتاء الزكاة الواجبات. وبهذا الإقراض: الصدقات المندوبة، وخصها بالذكر تنبيهًا على شرفها وعلومرتبتها، وتعظيمًا لموقعها من النفع المادي. قال الفرّاء: ولو قال: أقرضتم الله إقراضًا حسنًا لكان صوابًا أيضًا إلا أنه قد يقام الاسم مقام المصدر، ومثله قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا

بِقَبُــولٍ حَــسَنٍ﴾ (آل عمران:٣٧) ولم يقل يتقبل، قوله: ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَـسَنًا﴾ ولم يقل إنباتًا. ذكره الـرازي، وأبوحيـان، والبيـضاوي، وابـن الجـوزي، والقرطبي، وأبوالسعود والآلوسي(٧).

الثاني: قيل: المراد بالإقراض الزكاة. ذكره ابن الجـوزي، والبغـوي، وأبوحيـان واسـتبعده؛ لأنـه تكرار(٨).

الثالـث: وقـد فـسر هـذا الإقـراض بالنفقـة في سبيل الله. ذكره الطبري، وأبوحيان، وابن كثير(٩).

الرابـع: المـراد بـالإقراض النفقـة عـلى الأهـل. ذكره أبوحيان، والبغوي(١٠).

الخـامس: المـراد بـالإقراض النفقـة في سـبيل الخير. ذكره أبوالسعود والآلوسي، والشوكاني(١١).

٢- فإن قيل: من كفر قبل ذلك أيضًا فقد ضل سواء السبيل، فما فائدة تخصيصه بما (بَعْدَ ذلكَ)؟

قلنا: تخصيص الكفر ببعدية أخذ الميثاق وإن كـان قبلـه ضـلالًا عـن الطريـق المـستقيم، لأنـه بعـد الـشرط المؤكـد بالوعـد الـصادق الأمـين العظـيم أفحش وأعظم، إذ يوجب أخذ الميثاق الإيفاء به، لا سيما بعد هـذا الوعيد عظـم الكفرهـو بعظـم النعمـة المكفورة. ذكره الزمخشري، والرازي وأبوحيان(١٢).

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِيـنَ قَـالُوٓاْ إِنَّـا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّـا ذُكِّـرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡـنَهُمُ ٱلۡعَـدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡـضَآءَ إِلَىٰ يَـوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾. [المائدة:١٤]

في الآية بدهيتان:

١- فإن قلت: هلا قيل: (ومن النصارى) كما هو الظاهر بدون إطناب؟

فالجواب من وجوه:

الأول: لأنهـم إنـما سـموا بـذلك أنفـسهم ادعـاء لنصرة الله، وهـم الذين قالوا لعيسى: نحن أنصار الله ثم اختلفوا بعد إلى نسطورية ويعقوبية وملكانية انتهى. وقـد تقـدم في أوائـل البقـرة أنـه قيـل: سـموا نـصارى؛ لأنهـم مـن قريـة بالـشام تـسمى نـاصرة، وقولـه: وهـم الذين قالوا لعيسى: نحن أنصار الله القائل لذلك هم الحواريـون، وهـم عنـد الزمخشري كفـار، وقـد أوضـح ذلـك عـلى زعمـه في آخـر هـذه الـسورة، وعنـد غـيرهم مؤمنون، ولم يختلفواهم، إنما اختلف من جاء بعدهم ممـن يـدعي تبعيـتهم. ذكـره أبوحيـان والنـسفي، و الزمخشري، والبيضاوي، والشوكاني(١٣).

الثاني: قال الحسن: فيه دليل على أنهم نصارى بتسميتهم لا بتسمية الله تعالى. ذكره البغوي(١٤).

الثالـث: للإيـماء - كـما قـال بعـضهم- إلى أنهـم على دين النصرانية بزعمهم، وليسواعليها في الحقيقة لعدم عملهم بموجبهاومخالفتهم لما في الإنجيل من

التبـشيربنبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ. ذكـره ابـن الجـوزي، وأبوالسعود، والآلوسي(١٥).

الثالـث: وقيـل: للإشـارة إلى أنهـم لقبـوا بـذلك أنفسهم على معنى أنهم أنصارالله تعالى، و أفعالهم تقتضي نصرة الشيطان، فيكون العدول عن الظاهر ليتـصورتلك الحـال في ذهـن الـسامع و يتقـرر أنهـم ادعـوا نـصرة الله تعـالى وهـم منهـا بمعـزل، ونكتـة تخصيص هذا الموضع بإسناد النصرانية إلى دعواهم أنه لما كان المقصود في هذه الآية ذمهم بنقض الميثاق المـأخوذ عليهم في نـصرة الله تعالى ناسب ذلـك أن يصدر الكلام بما يدل على أنهم لم ينصروا الله تعالى، ولم يفوا بما واثقوا عليه من النصرة وما كان حاصل أمرهم إلا التفوه بالدعوى وقولها دون فعلها، ولا يخفى أن هذا مبني على أن وجه تسميتهم نصارى كونهم أنصار الله تعالى وهووجه مشهور، ولهذا يقال لهم أيضًا: أنصار.

وفي غيرما موضع أن عيسى عليه السلام ولد في سنة أربع وثلاث مئة لغلبة الإسكندر في بيت لهم من المقدس، ثم سارت به أمه عليها السلام إلى مصر، ولما بلغ اثنتي عشرة سنة عادت به إلى الشام فأقام ببلدة تسمى «الناصرة»، أو «نصورية»، وبها سميت النصارى ونسبوا إليها، وقيل: إنهم جمع نصران كندامى وندمان - أو جمع نصري - كمهري ومهاري - والنصرانية والنصرانة واحدة النصارى، والنصرانية أيضًا دينهم، ويقال لهم: نصارى وأنصار، و تنصر: دخل في دينهم. ذكره الآلوسي(١٦).

٢- فإن قلت: العداوة والبغضاء من الألفاظ المترادفة فما فائدة التكرار؟

أجاب عنه ابن عاشور، فقال: العداوَة والبغضاءُ اسمان لمعنيين من جنس الكراهية الشديدة، فهما ضدّان للمحبّة. وظاهرعطف أحدِ الاسمين على الآخر في مواضع من القرآن، في هذه الآية وفي الآيتين بعدها في هذه السورة، وفي آية سورة الممتحنة، أنّهما ليسا من الأسماء المترادفة؛ لأنّ التزام العطف بهذا الترتيب يبعِّد أن يكون لمجرّد التّأكيد، فليس عطف أحدهما على الآخر من قبيل عطف المرادف لمجرّد التّأكيد، كقوله عَدِي:

وألْفَى قَولهَا كَذِبا وَمَيْنا

وقد ترك علماء اللّغة بيان التفرقة بين العداوة والبغضاء، وتابعهم المفسّرون على ذلك؛ فلا تجد من تصدّى للفرق بينهما سوى الشيخ ابن عرفة التّونسي، فقال في «تفسيره»: العداوة أعمّ من البغضاء؛ لأنّ العداوة سبب في البغضاء؛ فقد يتعادى الأخ مع أخيه ولا يتمادى على ذلك حتّى تنشأعنه المباغضة، وقد يتمادى على ذلك» اهـ.

ووقع لأبي البقاء الكفوي في كتاب «الكليّات»

أنّه قال: «العداوة أخصّ من البغضاء؛ لأنّ كلّ عدوّ مبغض، وقد يُبغِض من ليس بعدوّ». وهو يخالف كلام ابن عرفة. وفي تعليليْهما مصادرة واضحة، فإن كانت العداوة أعمّ من البغضاء زادتْ فائدةُ العطف لأنّه يصير في معنى الاحتراس، وإن كانت العداوة أخصّ من البغضاء لم يكن العطف إلاّ للتّأكيد؛ لأنّ التأكيد يحصل بذكر لفظ يدلّ على بعْضٍ مُطلقٍ من معنى الموكَّد، فيتقرّر المعنى ولو بوجه أعمّ أو أخصّ، وذلك يحصل به معنى التّأكيد.

وعندي: أنّ كلا الوجهين غير ظاهر، والذي أرى أنّ بين معنيي العداوة والبغضاء التضادّ والتباين؛ فالعداوة كراهية تصدر عن صاحبها: معاملةٌ بجفاء، أوقطيعة، أو إضرار؛ لأنّ العداوة مشتقّة من العدو وهوالتجاوز والتباعد، فإنّ مشتقّات مادة (ع د و) كلّها تحوم حول التفرّق وعدم الوئام. وأمّا البغضاء فهي شدّة البغض، وليس في مادة (ب غ ض) إلاّ معنَى جنس الكراهية، فلا سبيل إلى معرفة اشتقاق لفظها من مادتها. نعم يمكن أن يرجع فيه إلى طريقة القلب، وهو من علامات الاشتقاق، فإنّ مقلوب بَغِض يكون غَضِب لاغير، فالبغضاء شدّة الكراهية غير مصحوبة بَعَدو، فهي مضمرة في النفس. فإذا كان كذلك لم يصحّ اجتماع معنيي العداوة والبغضاء في موصوف واحد في وقتٍ واحد، فيتعيّن أن يكون إلقاؤهما بينهما على معنى التّوزيع، أي أغرينا العداوة بين بعض منهم والبغضاءَ بين بعضٍ آخر. فوقع في هذا النظم إيجاز بديع، لأنّه يرجع إلى الاعتماد على علم المخاطبين بعدم استقامة اجتماع المعنيين في موصوف واحد[١٧].

١١- قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة:١٥]

فإن قلت: النور والكتاب واحد فما فائدة التكرار؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: أن المراد بالنور محمد، وبالكتاب القرآن. إليه ذهب قتادة واختاره الزجاج. ذكره الطبري، والرازي، وأبو السعود، وأبوحيان، والآلوسي، والشوكاني، وابن الجوزي، والنسفي[١٨].

الثاني: أن المراد بالنورالإسلام، وبالكتاب القرآن. ذكره الرازي، وأبوحيان، و الشوكاني، وابن الجوزي[١٩].

قال الطيبي: إنه أوفق لتكرير قوله سبحانه: ﴿قَدْ جَاءكُمُ﴾ بغير عاطف، فعلق به أولًا وصف

الرسول والثاني: وصف الكتاب[٢٠].

الثالـث: النوروالكتـاب هـو القـرآن. ذكـره الرازي وقال: وهذا ضعيف؛ لأن العطف يوجب المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، وتسمية محمد والإسلام والقرآن بالنور ظاهرة، لأن النور الظاهر هو الذي يتقوى به البصر على إدراك الأشياء الظاهرة، والنور الباطن أيضًا هو الذي تتقوى به البصيرة على إدراك الحقائق والمعقولات[٢١].

وذكـره - أيـضا- البيـضاوي وأبوحيـان، والنسفي[٢٢].

وذكره أبوالسعود، فقال: والعطف لتنزيل المغايَرَة بالعنوان منزلة المُغايرة بالذات[٢٣].

إليه جنح الآلوسي حيث قال: ولا يبعد عندي أن يراد بالنور والكتاب المبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و العطف عليه كالعطف على ما قاله الجبائي، ولا شك في صحة إطلاق كل عليه عليه الصلاة والسلام، ولعلك تتوقف في قبوله من باب العبارة فليكن ذلك من باب الإشارة[٢٤].

الرابع: وقيل: النور موسى، والكتاب المبين التوراة. ولو اتبعوها حق الاتباع لآمنوا بمحمد ﷺ إذ هي آمرة بذلك مبشرة به. ذكره أبوحيان[٢٥].

١٢- قال الله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.[المائدة:١٦]

فإن قلت: إن الهداية إلى سبل السلام عين الهداية إلى الصراط المستقيم فما فائدة العطف عليه؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: وإنما عُطفت عليها تنزيلًا للتغاير الوَصْفيِّ منزلة التغايُر الذاتي كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾. ذكره أبوالسعود، والآلوسي[٢٦].

الثاني: كرره للتاكيد. ذكره أبوحيان[٢٧].

١٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. [المائدة:١٩]

فإن قلت: ما فائدة تكرارنداء أهل الكتاب؟

أجاب عنه ابن عاشور فقال: كَرّر الله موعظتهم ودعوتَهم بعد أن بيّن لهم فسادَ عقائدهم و غرورَ أنفسهم بيانًا لا يدع للمنصف متمسَّكًا بتلك الضلالات، كما وعظهم ودعَاهُم آنفًا بمثل هذا عقّب بيان نقضهم المواثيق. فموقع هذه الآية تكرير لموقع قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ

رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (المائدة:١٥) الآيات، إلاّ أنّه ذكر الرسولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا بوصف مجيئه على فترة من الرسل ليذكِّرهم بأنّ كتبهم مصرّحة بمجيء رسول عقب رسلهم، وليريهم أنّ مجيئه لم يكن بِدعًا من الرسل إذ كانوا يَجيئون على فِتَر بينهم. و ذُكِر الرسول هنالك بوصف تبيينه ما يخفونه من الكتاب؛ لأنّ ما ذُكرقبلَ الموعظة هنا قد دلّ على مساواة الرسل في البشرية ومساواة الأمم في الحاجة إلى الرسالة، وما ذكر قبلَ الموعظة هنالك إنّما كان إنباء بأسرار كتبهم وما يخفون عِلمه عن النّاس لما فيه من مساويهم وسوء سمعتهم. و حذف مفعول ﴿يُبَيِّنُ﴾ لظهور أنّ المراد بيان الشريعة. فالكلام خطاب لأهل الكتاب يتنزّل منزلة تأكيد لجملة ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ﴾ (المائدة:١٥)، فلذلك فصلت[٢٨].

قال أبو السعود: تكريرٌ للخطاب بطريق الالتفات ولطفٌ في الدعوة ﴿قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ حال من رسولنا، وإيثارُه على (مبيِّنًا) لما مر فيما سبق، أي يبين لكم الشرائعَ والأحكامَ الدينية المقرونة بالوعد والوعيد، ومن جملتها ما بين في الآيات السابقة من بطلان أقاويلِكم الشنعاء، وما سيأتي من أخبار الأمم السالفة، وإنما حُذف تعويلًا على ظهور أن مجيءَ الرسول إنما هو لبيانها، أو يفعلُ لكم البيانَ، ويبذُله لكم في كل ما تحتاجون فيه إلى البيان من أمور الدين، وأما تقديرُ مثل ما سبق في قوله تعالى: ﴿كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ فِي الْكِتَٰبِ﴾ كما قيل فمع كونه تكريرًا من غير فائدة، يرده قوله عز وجل: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ فإن فتورَ الإرسال وانقطاعَ الوحي إنما يُحوج إلى بيان الشرائع والأحكام لا إلى بيان ما كتموه و(عَلى فَتْرةٍ) متعلق (بجاءكم) على الظرفية كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي، ومزيدِ احتياج إلى بيان الشرائع والأحكام الدينية، أو بمحذوفٍ وقع حالًا من ضمير يبين، أو من ضمير لكم، أي يبين لكم ما ذُكر حال كونه على فترة من الرسل، أوحال كونكم عليها أحوجَ ما كنتم إلى البيان، و(من الرسل) متعلق بمحذوفٍ وقع صفةً لفترة، أي كائنةٍ من الرسل مبتدَأةٍ من جهتهم[٢٩].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ

أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [٢٠-٢١]

فإن قلت: ما فائدة تكرار النداء بـ(ياقوم)؟

قلنا: كرر النداء بالإضافة التشريفية اهتمامًا بشأن الأمر ومبالغةً في حثهم على الامتثال به. ذكره أبوالسعود وابن عاشور(٣٠).

١٥- قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩]

فإن قلت: كيف يعقل أن يبوء القاتل بإثم المقتول مع أنه تعالى قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾، (فاطر:١٨)؟

فالجواب من وجوه:

الأول: إثم قتلي إلى إثمك الذي في عنقك فَتَكُونَ مِنْ أَصحابِ النَّارِ. قاله ابن مسعود وابن عباس و الحسن وقتادة. قال الطبري: وكأن قائلي هذه المقالة وجهوا تأويل قوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وإِثْمِكَ﴾: أي إني أريد أن تبوء بإثم قتلي، فحذف القتل واكتفى بذكر الإثم؛ إذ كان مفهوما معناه عند المخاطبين به. وهو قول عامة العلماء. وذكره الطبري - ورجحه - والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، وأبوالسعود، والآلوسي، والقرطبي، والبغوي، وابن الجوزي والثعالبي، و السمرقندي، وابن كثير(٣١).

الثاني: معنى ذلك: إني أريد أن تبوء بخطيئتي فتتحمل وزرها وإثمك في قتلك إياي. قال الطبري: هذا قول وجدته عن مجاهد، وأخشى أن يكون غلطا؛ لأن الصحيح من الرواية عنه ما قد ذكرنا قبل(٣٢).

وذكره - أيضًا - الرازي، أبوالسعود والبغوي، والشوكاني، والثعالبي وابن كثير.

واستظهره ابن عاشور وقال: والأظهر في معنى قوله: ﴿بإثمي﴾ مَا له من الآثام الفارطة في عمره، أي أرجوأن يغفر لي وتُحمل ذنوبي عليك. وفي الحديث: «يؤتى بالظالم والمظلوم يوم القيامة فيؤخذ من حسنات الظالم فيزاد في حسنات المظلوم حتّى ينتصف فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيّئات المظلوم فتطرح عليه». رواه مسلم(٣٣)؛ فإن كان قد قال هذا عن علم من وحي فقد كان مثل ما شُرع في الإسلام، وإن كان قد قاله عن اجتهاد فقد أصاب في اجتهاده وإلهامه ونطق عن مثل نُبوءة. ومصدر ﴿أن تبوء﴾ هو مفعول ﴿أريد﴾، أي أريد من الإمساك عن أن أقتلك إن أقدمت على قتلي أريد أن يقع إثمي عليك، فإثم مراد به الجنس أي ما عسى أن يكون له من إثم. وقد أراد بهذا موعظة أخيه، ولذلك عطف عليه قوله: ﴿وإثمك﴾ تذكيرًا له بفظاعة عاقبة فعلته، وكقوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ

أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ (النحل:٢٥)[٣٤].

وقال ابن كثير: (قلت) وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون في ذلك حديثًا لا أصل له «ما ترك القاتل على المقتول من ذنب» وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثًا يشبه هذا؛ ولكن ليس به فقال: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «قتل الصبر لا يمر بذنب إلا محاه»[٣٥]. وهذا بهذا لا يصح، ولو صح فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه فأما أن تحمل على القاتل فلا، ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العرصات، فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته فإن نفدت ولم يستوف حقه، أخذ من سيئات المقتول، فطرحت على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها[٣٦] والقتل من أعظمها وأشدها. والله أعلم[٣٧].

الثالث: المعنى إنما أستسلم لك إرادة أن تحمل إثمي لو بسطت إليك يدي، وإثمك ببسطك يدك إلي، كما في قوله عليه السلام: «المُسْتَبَّانِ مَا قَالاَ فَعَلَى البَادِئِ مَا لَمْ يَعْتَدِ المَظْلُوم»[٣٨]. ذكره الزمخشري، و البيضاوي، وأبوالسعود، والشوكاني، والسمرقندي[٣٩].

وعن هذا المعنى عبر القرطبي بقوله: معناه معنى قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قيل: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»[٤٠] وكأن هابيل أراد أني لست بحريص على قتلك؛ فالإثم الذي كان يلحقني لو كنت حريصًا على قتلك أريد أن تحمله أنت مع إثمك في قتلي[٤١].

وذكره الآلوسي وتعقبه قائلًا: قيل: وفيه نظر؛ لأن حاصل ما قرره أن على البادىء إثمه ومثل إثم صاحبه إلا أن يتعدى الصاحب، فلا يكون هذا المجموع على البادئ، ولا دلالة فيه على أن المظلوم إذا لم يتعد كان إثمه المخصوص بسببه ساقطًا عنه اللّهم إلا بضميمة تنضم إليه، وليس في اللفظ ما يشعر بها، ورده في «الكشاف» بأنه كيف لا يدل على سقوطه عنه، وقوله عليه الصلاة والسلام: «فعلى البادئ» مخصص ظاهر، وقول «الكشاف»: «إلا أن الإثم محطوط» تفسير لقوله: «فعلى البادئ» وقوله: فعليه إثم سبه، ومثل إثم سب صاحبه تفسير لقوله: «ما قالا» فكما يدل على أن عليه إثمًا مضاعفًا يدل على أن إثم صاحبه ساقط. هذا ثم قال: ولعل الأظهر في الحديث أن لا يضمر المثل، والمعنى: إثم سبابهما على البادئ، وكان ذلك لئلا يلتزم الجمع

بين الحقيقة والمجاز، والقول: بأنه إذا لم يكن لما قاله غير البادئ إثم، فيكف يقال: إثم سببهما، وكيف يضاف إليه الإثم مشترك الإلزام؟ وتحقيقه أن لما قاله غير البادئ إثمًاوليس على البادئ، وليس بمناف لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَــزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْــرَىٰ﴾ (الأنعام:٤٦١) لأنه بحمله عليه عدّ جانيًا، وهذا كما ورد فيمن سن سنة حسنة أوسنة سيئة، نعم فيما نحن فيه العامل لا إثم له إنما هو للحامل، و الحاصل أن سب غير البادئ يترتب عليه شيئان، أحدهما بالنسبة إلى فاعله وهوساقط إذا كان على وجه الدفع دون اعتداء، والثاني: بالنسبة إلى حامله عليه وهو غيرساقط أعني أنه يثبت ابتداءً لا أنه لا يعفى، وأورد في «التحقيق» أن ما ذكره من حط الإثم من المظلوم لأنه مكافئ غيرصحيح؛ لأنه إذا سب شخص لم يستوف الجزاء إلا بالحاكم، والجواب أن صريح الحديث يدل على ما ذكر في «الكشاف»، والجمع بينه وبين الحكم الفقهي أن السب إما أن يكون بلفظ يترتب عليه الحد شرعًا فذلك سبيله الرفع إلى الحاكم، أو بغير ذلك و حينئذ لا يخلوإما أن يكون كلمة إيحاش أو امتنان أو تفاخر بنسب ونحوه مما يتضمن إزراء بنسب صاحبه من دون شتم - كنحو الرمي بالكفر والفسق - فله أن يعارضه بالمثل، ويدل عليه حديث زينب وعائشة رضي الله تعالى عنهما، و قوله عليه الصلاة والسلام لعائشة: «دونك فانتصري»[٤٢]. أو يتضمن شتما فذلك أيضًا يرفع إلى الحاكم ليعزره، والحديث محمول على القسم الذي يجري فيه الانتصار، وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ما لم يعتد المظلوم» يدل عليه؛ لأنه إذا كان حقه الرفع إلى الحاكم فاشتغل بالمعارضة عد متعديًا انتهى. وهو تفصيل حسن[٤٣].

الرابع: قيل: المراد بالإثم: ما يلزمه ويترتب عليه من العقوبة. ذكره الآلوسي، وتعقبه قائلًا: ولا يخفى أنه لا يتضح حينئذ تفريع قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ النَّارِ﴾ على تلك الإرادة، فإن كون المخاطب من أصحاب النار إنما يترتب على رجوعه بالإثمين لا على ابتلاء بعقوبتهما وهو ظاهر، و حمل العقوبة على نوع آخر يترتب عليه العقوبة النارية يرده - كما قال شيخ الإسلام - قوله سبحانه: ﴿وَذَٰلِكَ جزاء الظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه صريح في أن كونه من أصحاب النار تمام العقوبة وكمالها، والجملة تذييل مقرر لما قبله[٤٤]، وذكره البغوي[٤٥].

الخامس: قيل: المعنى إني أريد ألاّ تبوء بإثمي وإثمك كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (النحل:١٥) أي لئلا تميد بكم. وقوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ (النساء:١٧٦) أي لئلا تضلوا فحذف(لا).

هذا الوجه ذكره القرطبي وضعفه حيث قال: قلت: وهذا ضعيف؛ لقوله عليه السلام: «لا تُقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأوّل كِفْل من دمها؛ لأنه أوّل من سَنّ القتل»(٤٦). فثبت بهذا أن إثم القتل حاصل؛ ولهذا قال أكثر العلماء: إنّ المعنى: ترجع بإثم قتلي وإثمك الذي عملته قبل قتلي. قال الثعلبي: هذا قول عامة أكثر المفسرين. وذكره الشوكاني(٤٧).

السادس: قيل: هو استفهام أي: أو إني أريد؟ على جهة الإنكار؛ كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ (الشعراء:٢٢) أي أو تلك نعمة؟ وهذا لأن إرادة القتل معصية.

حكاه القشيري وسئل أبو الحسن بن كَيْسان: كيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه وأن يدخل النار؟ فقال: إنما وقعت الإرادة بعد ما بسط يده إليه بالقتل؛ والمعنى: لئن بسطت إلي يدك لتقتلني لأمتنعنّ من ذلك مريدًا للثواب؛ فقيل له: فكيف قال: بإثمي وإثمك؛ وأي إثم له إذا قتل؟ فقال: فيه ثلاثة أجوبة، أحدها: أن تبوء بإثم قتلي وإثم ذنبك الذي من أجله لم يتقبل قربانك؛ ويروى هذا القول عن مجاهد.

والوجه الآخر: أن تبوء بإثم قتلي وإثم اعتدائك علي؛ لأنه قد يأثم بالاعتداء وإن لم يقتل.

والوجه الثالث: أنه لو بسط يده إليه أَثِم؛ فرأى أنه إذا أمسك عن ذلك فإثمه يرجع على صاحبه. فصار هذا مثل قولك: المال بينه وبين زيد؛ أي المال بينهما، فالمعنى أن تبوء بإثمنا. وأصل باء رجع إلى المَباءة، وهي المنزل ﴿وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ (البقرة:٦١) أي رجعوا. وقد مضى في «البقرة» مستوفى. وقال الشاعر:

إلاَ تَنْتَهي عَنَّا مُلُوكٌ وتَتَّقي
مَحارِمَنا لا يبُؤ الدَّمُ بالدَّمِ

أي لا يرجع الدّم بالدم في القود. ذكره القرطبي، والشوكاني(٤٨).

* * *

الهوامش:

(١) ابن عاشور في تفسير الآية؛ القرطبي ٦/٨٠.

(٢) الطبري ٦/١٠٣.

(٣) البيضاوي ٢/٣٠١؛ ابن الجوزي في تفسير الآية؛ الآلوسي٦/٨٤.

(٤) البيضاوي ٢/٣٠١؛ الآلوسي٦/٨٤.

(٥) أبوحيان في تفسير الآية.

(٦) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٧) الرازي ١١/٣٢٣؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ البيضاوي ٢/٣٠٤؛ ابن الجوزي في تفسير الآية؛ القرطبي ٦/١١٣؛ الآلوسي ٦/٨٩؛ أبوالسعود ٣/١٧.

(٨) أبوحيان في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية؛ البغوي في تفسير الآية.

(٩) الطبري ٦/١٠٠؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ ابن كثير ٣/٥٩.

(١٠) أبوحيان في تفسير الآية؛ البغوي في تفسير الآية.

(١١) الآلوسي٦/٨٩؛ أبو السعود ٣/١٧؛ الشوكاني في تفسير الآية.

(١٢) الـرازي ٣٢٣/١١؛ أبوحيـان في تفـسير الآيـة؛ الزمخـشري في تفسير الآية.

(١٣) أبوحيان في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية؛ الزمخشري في تفسير الآية؛ البيضاوي ٣٠٦/٢؛ الشوكاني في تفسير الآية.

(١٤) البغوي في تفسير الآية.

(١٥) ابن الجوزي في تفسير الآية؛ الآلوسي٦/٩٥و١٩/٣.

(١٦) الآلوسي٦/٩٥.

(١٧) ابن عاشور في تفسير الآية.

(١٨) الطـبري ١٠٤/٦؛ الـرازي ٣٢٦/١١؛ أبوالـسعود٣/٢١؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ الآلوسي٦/٩٣؛ الشوكاني في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية؛ النسفي في تفسير الآية.

(١٩) الـرازي٣٢٦/١١؛ أبوحيـان في تفـسير الآيـة؛ الـشوكاني في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسير الآية.

(٢٠) الآلوسي٦/٩٣.

(٢١) الرازي ٣٢٦/١١.

(٢٢) البيـضاوي٣٠٧/٢؛ أبوحيـان في تفـسير الآيـة؛ النـسفي في تفسير الآية.

(٢٣) أبوالسعود٣/٢١؛ الآلوسي٦/٩٣.

(٢٤) الآلوسي٦/٩٣.

(٢٥) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٦) أبو السعود ٢١/٣؛ الآلوسي٦/٩٩.

(٢٧) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٨) ابن عاشور في تفسير الآية.

(٢٩) أبوالسعود ٢٥/٣. راجع: أيضا: الآلوسي١٠٣/٦.

(٣٠) أبوالسعود ٢٧/٣؛ ابن عاشور في تفسير الآية.

(٣١) الطبر ي ١٢٤/٦؛ أبوالـسعود ٢٩/٣؛ الثعـالبي في الجـواهر الحسان في تفسير الآيـة؛ الـشوكاني تفسير الآيـة؛ البغـوي في تفـسير الآيـة؛ الآلـوسي١١٣/٦ ومـا بعـدها؛ الزمخـشري في تفـسير الآيــة؛ البيــضاوي ٣١١/٢؛ القرطبــي ١٣٤/٦؛ السمرقندي٣٨٥/١؛ ابن كثير ٦٩/٣.

(٣٢) الطبري ١٢٤/٦؛ أبو السعود ٢٩/٣.

(٣٣) لم أجده في صحيح مسلم، وإنما رواه البخاري في المظالم باب من كانت له مظلمة فحلله.....[٢٤٠٦] بلفظ: «مَن كانت لهُ مَظلمةٌ لأخيهِ مِن عِرضِه أو شيءٍ فليَتحلَّلْهُ منهُ اليومَ قبلَ أن لايكونَ دينارٌ ولا دِرهمٌ، إن كانَ لهُ عملٌ صالِحٌ أُخِذَ منهُ بقدْرِ مَظلمتِه، وإن لم تكنْ لهُ حَسناتٌ أُخِذَ من سيِّئات صاحبِه فحُمِلَ عليه». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣٤) الـرازي ٣٤٠/١١؛ أبـو الـسعود٣/٢٩؛ البغـوي في تفـسير الآية؛ والشوكاني في تفسير الآية؛ الثعالبي في تفسير الآية؛ ابن عاشور في تفسير الآية؛ ابن كثير٣/٦٩.

(٣٥) إسناده كما ذكر ابن كثير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا عامر ابن إبراهيم الأصبهاني، حدثنا يعقوب بن عبد الله، حدثنا عتبة بن سعيد عن هشام بن عروة، عن أبيه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦٦/٦): رواه البزار وقال لا نعلمه يروى عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلا من هذا الوجه ورجاله ثقات.

(٣٦) رواه مسلم في الصحيح ١٩٩٧/٤[٢٥٨١].

(٣٧) ابن كثير ٦٩/٣.

(٣٨) الحديث: راوه مسلم في الصحيح في البر والصلة با ب النهي عن السباب ١٢٠/١٦[٦٥٤٣].

(٣٩) الزمخشري في تفسير الآية؛ البيضاوي ٣١١/٢؛ أبوالسعود ٢٩/٣؛ الشوكاني تفسير الآية؛ السمرقندي٣٨٥/١.

(٤٠) الحديث: رواه البخاري في الإيمان باب المعاصي من أمر الجاهلية ولايكفر ١١١١/٣[٣١].

(٤١) القرطبي ١٣٤/٦.

(٤٢) الحديث: رواه أحمد في المسند [٢٤٢٢٧].

(٤٣) الآلوسي١١٣/٦ وما بعدها.

(٤٤) الآلوسي١١٣/٦ وما بعدها.

(٤٥) البغوي في تفسير الآية.

(٤٦) الحديث: رواه البخاري في الأنبياء باب خلق آدم وذريته [٣٢٦٥].

(٤٧) القرطبي ١٣٤/٦؛ الشوكاني تفسير الآية.

(٤٨) القرطبي ١٣٤/٦؛ الشوكاني تفسير الآية.

العلاقة بين الزوجين

بقلم: فضيلة الشيخ أحمد الخميس

الزواج طمأنينة

عني الإسلام بإظهار الأهداف الروحية من الزواج، وقد جعلها الركائز التي يقوم عليها بناء الحياة الزوجية والدعائم التي تحقق الألفة والمودة، وتتمثل في سكون النفس مع اضطرابها الجنسي الفطري بالحب بين الزوجين وتوسيع دوائر المودة والألفة بين العشيرتين بالمصاهرة واكتمال عواطف الحنان والرحمة الإنسانية وانتشارها بين الزوجين لتنتقل إلى البنين والبنات، وإلى هذه المعاني الروحية يرشدنا تعالى بقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:٢١).

الصلة الجسدية

ومع هذا لم يغفل الإسلام الجانب الجنسي والعلاقة الجسدية بين الزوجين، فقد هدى بها إلى أقوم سبيل، وأرشد طريق، لتحقيق أهداف حق الفطرة الغريزية، وبذلك تجنب الانحراف والاعوجاج، فقد كان اليهود والمجوس يبالغون في التباعد عن المرأة حال حيضها، والنصارى كانوا يجامعونها في الحيض ولا يبالون، وعرب الجاهلية تأثروا باليهود في هذه الناحية، فكانوا إذا حاضت المرأة لا يُواكلونها، ولا يشاربونها، ولا يجالسونها على فراش، ولا يساكنونها في بيت، لذلك توجه بعض المسلمين إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للسؤال عما يحل لهم وما يحرم عليهم في معاملة الحائض فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة:٢٢٢) وفهم بعض الأعراب أن الاعتزال ألا يساكنوهن، فبين النبي ﷺ لهم المراد من الآية وقال: إنما آمركم أن تعتزلوا مجامعتهن إذا حضن، ولم آمركم بإخراجهن من البيوت كفعل

الأعاجم، فلما سمع اليهود ذلك قالوا: هذا الرجل يريد ألا يدع شيئا من أمرنا إلا خالفنا فيه.

وإذا رجعنا إلى الطب الحديث نجده قد كشف النقاب عما يوجد في إفرازات الحيض من مواد سامة تضر بالجسم إذا بقيت فيه، وكذلك كشف عن سر الاعتزال أثناء الحيض، فالأعصاب التناسلية تكون في وضع احتقان والأعصاب مضطربة بسبب إفرازات الغدد الداخلية فالاختلاط الجنسي يضرها ضررًا بليغا وربما كان سببًا في منع نزول الحيض، وقد يكون سببًا في التهاب الأعضاء التناسلية.

وفي الآية تشبيه للقاح الجنسي بالإنبات وأن الغاية من الحرث والزرع هو ا لإنتاج، وكذلك الغاية من اللقاح الجنسي هو التوالد والتناسل، ومكان ذلك معلوم، وماعداه فهو محظور ممنوع منهي عنه، ولذلك نجد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهى الرجال عن إتيان المرأة في غير المكان الطبيعي الذي أعد لذلك وقال: لا تأتوا النساء في أدبارهن، وقال: لعن الله من أتى امرأة في دبرها، وقال في الذي يأتي امرأة في دبرها: هو اللوطية الصغرى.

حفظ أسرار الزوجية

وقد أثنى القرآن على المرأة التي تحفظ السر بالغيب فقال سبحانه: ﴿قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ (النساء:٣٤) وفي جملة الغيب الذي يجب أن تحفظه المرأة؛ بل هو في طليعة ذلك ما كان من أسرار الزوجية، فلا يصح أن تذكره في المجالس وتجعله مادة لسمرها مع صويحباتها، وكذلك يجب على الرجل ما يجب على المرأة في هذا المضمار من كتمان للسر وحفظ للحاجات والمتع الزوجية، فقد ورد عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أبي هريرة قال: صلى بنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما سلم أقبل علينا بوجهه، فقال: مجالسكم؛ هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه، وأرخى ستره، ثم يخرج، فيحدث، فيقول: فعلت بأهلي كذا، وفعلت كذا؟ فسكتوا، فأقبل على النساء، فقال: منكن من تحدث فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها وتطاولت ليراها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويسمع كلامها فقالت: إي والله إنهم يتحدثون، وإنهن يتحدثن، فقال عليه السلام: هل تدرون ما مثل من فعل ذلك؟ إن مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة لقي أحدهما صاحبه بالسكة، فقضى حاجته منها، والناس ينظرون إليه.

وفي هذا التشبيه ما فيه من تحقير وازدراء لهذه العادة الخسيسة والحماقة الوضيعة.

المعاشرة الزوجية

عقد الزواج عهد وثيق ربط بين قلب ا لرجل وقلب المرأة، وبذلك أصبح كل فرد منهما أليفًا للآخر، ويسمى زوجًا بعدما كان فردا؛ لأن كل واحد من الرجل والمرأة يمثل أليفه وخليله، ويحمل بين ضلوعه وحناياه آماله وآلامه.

وقد صور القرآن الكريم قوة هذا الرباط بين الزوجين وعظمته فقال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة:١٨٧) وهو تعبير بليغ معجز يكشف عن مقدار الاندماج والستر والحماية والطهر والجمال الذي يحققه كل منهما لصاحبه، ومن أجل ذلك كان على كل من الزوجين حقوق وواجبات للآخر ينبغي تحقيقها والنزول عند رغباتها وأهدافها كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة:٢٢٨) وقد سأل رجل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال يا رسول الله، ما حق زوجة أحدنا عليه قال: أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب ا لوجه، ولا تقبح، ولا تهجر في المبيت. فلا يجوز للزوج المسلم أن يترك زوجته بلا نفقة وبلا كسوة ومسكن، وفي الحديث: كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت. ولا يجوز أن يضرب وجه زوجته لما فيه من إهانة واحتقار ومذلة للإنسان مع ما في ذلك من خطر جسيم على أجمل عضو في الإنسان، فالوجه هو جماع محاسن الجسم البشري وفيه حواس الذوق والشم والبصر.

وإذا كانت الشريعة الإسلامية أجازت للمسلم عند الضرورة أن يؤدب زوجته الناشزة المتمردة الخارجة على بيت الزوجية وعش الحياة فهي لم تبح له مع هذه الضرورات ضربها ضربا مبرِّحا مؤلمًا يصيب وجهها أو مقاتلها، وكذلك لا يجوز للمسلم أن يهين زوجته بأن يؤذيها بلسانه، ويسمعها مُرّ الكلام كأن يقول لها: قبحك الله، وما شابه ذلك أو شاكله من الكلمات الجارحات المؤذيات.

وللزوج كذلك على المرأة حقوق، فلا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن لأحد في الدخول إلى بيت زوجها وهو كاره، ولا تخرج منه وهو كاره، ولا تطيع فيه أحدًا، ولا تعتزل فراشه، ولا تضربه إذا كانت أقوى منه جسدًا، وبذلك تسعد في حياتها، ويرضى عنها ربها، وتكون لها الدرجات العلى.

سياسة البيت

وعلى المسلم أن يصبر على زوجته إذا رأى منها ما يكره من تصرفاتها العاطفية، فالمرأة سريعة الغضب سريعة الانفعال سريعة الرضى، ويجب أن

يذكر حسناتها وما تقوم فيه من الخدمة المنزلية وتربية الأبناء وإدخال السرور على الجميع في حالات الرضى، وفي الحديث: لا يفرك (لا يبغض) مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقًا رضي منها غيره.

وقال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء:١٩) وكذلك أوجب الإسلام على المرأة أن تسترضي زوجها، وتدخل عليه السرور والسعادة، وتكون معه في أزمات الحياة، وحذرها من أن تدع زوجها يبيت وهو غاضب عليها، وفي الحديث: ثلاثة لا ترتفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرا: رجل أمّ قوما وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصادمان (متخاصمان).

وطالما أن الرجل سيد البيت وقطب الرحى وهو محور لسعادة الأسرة ونقطة ارتكازها فعلى المرأة أن تطيعه أوّلًا فإن تمردت، وعصت، وخرجت عن طاعته فسدت الشركة، واضطربت سفينة المنزل وقد تغرق طالما تسير بدون ربان وبدون قيادة.

وإذا لاحظ الزوج على زوجته آثار النشوز ومظاهر العصيان والتعالي، فعليه أن يحاول إصلاحها بما يقدر وبما يستطيع من صبر وأناة وكلمات طيبات ومعاملة رقيقة فإن لم تنجح هذه المعاملة في إصلاحها هجرها في المضجع فإن لم تفد هذه التجربة القاسية عمد إلى تأديبها بالضرب غير المبرِّح، وهو علاج قد يجدي أحيانا في بعض النساء الضعيفات المعرفة والعقل، ومع هذا الذي أباحه الإسلام فنجد أن الضرب غير مرغوب فيه فهو الضرورة القاصية والعلاج الأخير الذي لا يعمد إليه إلا بعد أن تعجزه الحيلة، وينفد الصبر ولات مناص، فقد نفر الرسول ﷺ من الضرب فقال: «يضرب أحدكم امرأته ضرب العبد ولعله أن يجامعها آخر اليوم» فإن لم تنفع جميع هذه الوسائل فعلى المجتمع الإسلامي أن يتدخل وعلى أهل الرأي والخير الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر أن يتدخلوا للإصلاح فيبعثوا حَكَمًا من أهله وحكَمًا من أهلها لعل الله يوفق بينهما.

وفي هذا كله قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء:٣٤-٣٥).

التكامل المعرفي وأثره على النهضة العلمية والحضارية

بقلم: الأستاذ يوسف العزوزي(*)

التكامل المعرفي بين العلوم سواء الدينية أو الإنسانية الكونية له عمق تأريخي وأصالة زمنية، فهو قديم قدم تلك المعارف والعلوم نفسها؛ لأن العلوم التي جاءت نِتاج علوم الوحي إنما هي في الحقيقة علوم متكاملة فيما بينها، فكل العلوم مطلوبة إما ابتداء أو تبعًا.

وإلى هذا المعنى يشيرعالم أهل الأندلس ابن رشد الحفيد حيث قال: «إن العلوم صنفان: علوم مقصودة لنفسها وعلوم مسددة للإنسان في تعلم العلوم المقصودة في نفسها»(١).

فعلوم الوحي تحتاج العلوم الإنسانية في التأصيل والاجتهاد، والعلوم الإنسانية تتطلب مستويات مادية وأخرى روحية.

وإننا إذا نظرنا سير السابقين من علمائنا وجدناهم جسدوا هذا المعطى وحققوا ذلك التكامل: فلقد كانواعلماء موسوعيين متبحرين في جل العلوم ينهلون من كل المعارف وحياض الفنون، ومشاركاتهم وتآليفهم شاهدة على ذلك ومنبئة بما هنالك.

فالإمام الغزالي كان فقيها أصوليا فيلسوفا لغويا مربيا، وابن رشد طبيبا فقيها فيلسوفا لغويا وقاضيا، والعز بن عبد السلام كان عالما بالفقه والمقاصد واللغة والأصول وفصول السياسة والحكم، وابن خلدون عالما بالاجتماع مؤسسا له فقيها قاضيا لغويـًا، وابن حزم والسيوطي، وابن تيمية وغيرهم من الأعلام الذين يعسر على الباحث أن ينسبهم لتخصص معين، على اعتبار أنهم شاركوا بالكتابة والتأليف في جل مجالات المعرفة، وشتى أنواع الثقافة والفنون، وما ذلك إلا لأنهم نظروا إلى العلوم الإنسانية على أنها ضرورة، بها تتم العلوم الدينية.

(*) حي أكدال ٥١٦ مدينة سيدي سليمان - المغرب

غير أن الوضع تغير سلبًا تأثيرًا بجملة من المؤثرات الداخلية والخارجية سواء المؤثرات: التأريخية أو السياسية أوالحداثية المادية.

فتولدت فجوة القطيعة والتجزئة والتشرذم بين الحقول المعرفية، ووجد التنائي وفقد التقارب والتداني وغابت تلك الوحدة، فأضحى المتعلم لا يكاد يفارق تخصصه إلا لمامًا، مطلعًا على ما احتواه تخصصه جاهلًا بما سواه، مطفئًا أنوار بصيرته عند حدود تخصصه، وتلك هي المعرفة التي لا تقوم بها قائمة ولا ترتجى من ورائها نهضة.

هذا النموذج من المعرفة إذن يمكن القول: إنه يمثل «إنسان النصف» الذي يعتبر سبب تعطيل وإفساد النهضة الفكرية والحضارية على حد تعبير المفكر مالك بن نبي.

بين التخصص والتقوقع:

غير أن ذلك لا يمنع من التخصص الدقيق في بعض العلوم والفنون تخصصًا يتيح لصاحبه الإنتاج والإبداع في محرابها، وهذا من التخصص المحمود، وقد اشتهر عدد من علماء المسلمين بتخصصهم في علوم وبروزهم فيها دون غيرها، حتى ارتبط اسمهم بها وأضحت علَما عليهم دون غيرها من العلوم الأخرى، ومن أولئك العلامة الشاطبي رحمة الله عليه في المقاصد الشرعية، وابن الصلاح في علم المصطلح، والإمام مسلم في الحديث ... وهذا أمر لا بأس به ما دام أنه لم يأت على حساب علوم أخرى، وإلا فلقد صنف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحابة كل حسب تخصصه ومجال اشتغاله. فقال عليه السلام -في معرض حديثه عن الصحابة وما امتاز به كل واحد عن غيره - فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: «...وأعلَمُهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي بن كعب...» الحديث(٢).

فهذا التصنيف من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذن وإن دل على وجود تخصصات معينة لدى الصحابة إلا أن له دلالتين زيادة على ذلك:

أولاهما: أن علم معاذ بالحلال والحرام، وزيد ابن ثابت بالفرائض - المواريث- وأبي بالقراءة يدل على أنهم فاقوا غيرهم في تلك العلوم والمعارف، وأحاطوا بأحكامها، فاشتهروا بذلك دون غيرهم فأصبحوا مرجعا في تلك المجالات والمعارف.

ثانيها: اختصاصهم بذلك لا يعني جهلهم بغير ما هنالك. فمعاذ كان ولا شك عالمًا بالفرائض

عالما بالقراءة، وزيد كان عالما بالحلال والحرام عالما بالقراءة وهكذا دواليك، غير أنهم تخصصوا في تلك المعارف واتخذوها نقطة انطلاق إلى ما دونها من المعارف، لا أنهم اعتبروها نقطة الانتهاء والتقوقع والانزواء، وهذا هو عين التخصص المحمود الذي يفتح لصاحبه سبلا أَخَر لطرْق شتى أبواب العلوم والمعارف والنهل من كل الموارد والمشارب.

التكامل المنشود:

فحقيقة التكامل المرجو تحصيله هو الذي لا يعترف بالحدود الوهمية للمعارف، ولا يراعي تصنيفها تصنيفا يمنع من الزيادة في الطلب والتحصيل بين علوم كونية وأخرى عقلية أو علوم دينية وإنسانية؛ بل الهدف هو تحقيق وحدة معرفية تكاملية تقوم على انصهار الفوارق بين الحقول المعرفية، واعتبار العلوم جميعها كتلة واحدة مطلوبة إما ابتداء أو تبعًا.

غير أن ذلك قد لا يتأتى بحيث لا يمكن الإحاطة بمجالات المعرفة جلها فأحرى كلها، فيعسر بلوغ التكامل المعرفي المراد، وهذا أمر وارد لا محالة. فيجد المرء نفسه بين أمرين: الإلمام بالتخصص والتقوقع حوله، أو الأخذ بنتف معرفية من كل الحقول لا تؤهله للإلمام بأحدها ولا تجعل منه عالما؛ بل لا تكاد تبلغ به رتبة المثقف، وهما أمران أحلاهما مر.

غير أن هذا الأمر لن يمنع من العمل وفق مؤسسات ولجان ومجامع لتحقيق ذلك التكامل المنشود سواء على مستوى الجامعات أوالمؤسسات التعليمية؛ بل حتى على مستوى الدولة والأمة جمعاء.

فيُنتقَى لكل تخصص من هو أهل له، ويُجتهد في النازلة كل حسب موقع ومجاله فتُجمع الأقوال وتُوحد الآراء وتستنبط الأحكام بمعية كل ذلك دون إقصاء لحقل من الحقول.

وقريب من هذا المعنى قول الدكتور بعمر محمد: «فالواقع المعاصر اليوم يعرف تطورًا كبيرًا في العلوم بقسميها الإنساني والطبيعي، والفقيه في أمس الحاجة إلى معرفة هذه العلوم في بناء فتاويه واجتهاده، وإذا استعصت عليه هذه المعرفة كان من الواجب عليه الاستعانة بالعلماء المتمكنين بمجال تخصصهم»(٣).

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي في بيان: إنه لا حرج في الاشتغال على التخصصات الدقيقة، وأن

ذلك من أسباب تسهيل إصدار الفتاوى والأحكام على النوازل ما دام أن ذلك سينتظم عبر عمل جماعي: «... وإذا قلنا بتجزؤ الاجتهاد كما هو رأي الأكثرين فالأمر أسهل وأسهل. فهناك من العلماء من عكفوا على فقه الأسرة أو الأحوال الشخصية وتفرغوا له وأتقنوه، ونفذوا إلى أعماق مسائله... وآخرون تفرغوا لفقه المعاملات المالية أو الجانب الاقتصادي في التشريع الإسلامي... وغيرهم اهتم بالفقه الجنائي أو الإداري أو الدستوري، فهم مجتهدون فيما تخصصوا فيه»(٤).

ثمرات التكامل المعرفية:

إن التكامل المعرفي كفيل بصناعة النموذج المعرفي العلمي والنموذج الحضاري؛ لأن التطور الإنساني يقتضي توسيع البحث وإشراك كافة العلوم المسعفة والمساعدة. فالخطأ أن يجتهد الفقيه بعيدًا عن المعرفة بالمجتمع ونفسية السائل. فهو ضرورة لتحقيق المنجزات العلمية والحضارية.

وإن التأريخ الإسلامي خاصة يبرز أن العلماء العرب قديمًا قد حرصوا على تحقيق التكامل بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية، بداية من مطلع العصر العباسي الذي سعى فيه الخليفة المأمون لإنشاء بيت الحِكمة والعمل على ترجمة التراث اليوناني والعلوم العقلية وإعادة التجانس بين العلوم الكونية والعقلية، فتمكنوا من خلال ذلك إلى بناء أعظم الحضارات الإسلامية الإنسانية، أرغمت الأعداء على الاعتراف بها قبل الأخلاء.

تقول الدكتورة عقيلة حسين في بيان الأسس التي عليها تقوم الحضارة وبها تبنى: «أساس بناء الحضارة الإسلامية: الدين والعلم، والدين الإسلامي حث على العلم في أول الآيات نزولًا على سيد الخلق صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والعلم هو أساس التكليف والاجتهاد وصحة الأعمال والأقوال»(٥).

فكل واقعة خلفت فجوة بين العلوم الدينية والعلوم الكونية أو بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية - مشكلة الثقافتين - تعتبر بمثابة ناقوس خطر وطريق فشل النهضة العلمية والحيلولة دون قيام الحضارة.

إذ الحضارة تستلزم خدمة المعارف بعضها لبعض، وانصهارها في قالب واحد يروم خدمة الإنسان وبناء العمران، وهو ما يجعل الخروج من نفق التخصصات العلمية إلى رحابة التكامل المعرفي أمرًا ضروريًا للنهضة العلمية والحضارية.

من صور غياب التكامل في واقعنا:

الضعف الحاصل في شتى المجالات، ويظهر ذلك جليًا في المجال التربوي التعليمي، وهشاشة المنظومة التعليمية في عدد من الدول خاصة، إنما أحد أسبابها غياب التكامل المعرفي بين العلوم، وغياب ثمرات العلم والتعلم في بناء وعي سليم في المجتمع، إضافة إلى الهوة والخرق الكبير الموجود بين الهوية والتكوين عند الطلاب الجامعيين، فهم في مواجهة أفكار دخيلة في علم النفس، وعلوم التربية، والقانون والسياسة، واللسانيات والطب دون أدنى معرفة بالتأريخ الإسلامي لتلك العلوم جميعها. وفي المقابل طالب العلوم الدينية تائه بين التأسيس لفكر شخصي وبين المذاهب الفكرية، وبين تحصيل المعارف والعلوم المنفصلة عن غيرها من غير منهج تفكيري أو نقدي، من قبيل تحصيل علم الحديث بلا علم الأصول والمقاصد، أو أصول الفقه بدون علوم اللغة، والعقائد بلا مناهج، وتصنيف العلوم العقلية علوم إضلال وزندقة، فانقطعت الصلة بين أطياف العلوم وأنواع الفنون، وهذا كله خلاف الأصل؛ إذ الأصل في تلك العلوم التفاعل مع النظام المجتمعي وقوانينه، واحتضان كيانه وهويته، والمحافظة على ثوابته، وضمان وجوده واستمراره.

مخاطر غياب التكامل:

إن آفة غياب وحدة معرفية وتكامل علمي مؤذن بخراب البلاد وهلاك العباد جراء ما يحصل من سوء في التقدير وسلامة في التنظير.

وإن الفقهاء قد أدركوا خطورة ذلك قديمًا فاشترطوا فيمن يُنتصب للاجتهاد والفتوى شروطًا تضمن لصاحبها صفة التكامل أو تكاد، وذلك من قبيل تحقيق العلم بالنصوص الشرعية ومواطن الإجماع واللغة ودلالاتها، والواقع ومتغيراته.

ولذلك فإن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان منهجه مستوحى مما يجري في وسطه ومجتمعه، فكان عليه السلام في سنته يمثل تجسيدا للربط بين المنهج القرآني والواقع(٦).

لهذا وغيره فإن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قد ذم على بعض أصحابه جمودهم على النص والتصدر للفتوى دون مراعاة فهم الواقع ومآلات الفتوى والاجتهاد، وهي كلها وحدات يكمل بعضها بعضًا، فتنأى بصاحبها عن الخطأ الصريح، وتدنوا به من الصواب الصحيح.

ففي حديث جابر رضي الله عنه الذي أخرجه

أبـو داود[٧] - وغـيره- أنـه قـال: «خرجنـا في سـفر فأصـاب رجـلا منـا حجـرٌ فـشجه في رأسـه فـسأل أصحابه هل تجدون لي من رخصة؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على المـاء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله أخبر بذلك فقال: قتلوه قتلهم الله...» الحديث.

فهـلاك هـذا الـصحابي إنـما كـان نتيجـة غيـاب تكامـل معـرفي وعـدم توفيـق في التنزيـل للفتـوى، وذهول عن مآلات الفتوى ونتائجها، ما جعل النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يغلظ القول: قتلهم الله.

كـما أن غيـاب وحـدة المعرفـة والتقوقـع داخـل التخصصات والتعصب لتلك التحزبات والجماعات نـــذير بـــصراعات تحـــول دون التقـــدم العلمـــي والحضاري.

فتجد على سبيل المثل مدارس تتمسك بالرأي وأخرى بـالأثر وبينهما جسور الوصـال لم تـربط بـين تلـك التخصـصات والمنـاهج وتـدفع عنهـا القطيعـة، وتجـد ثلـة تقـرب المنطـق وتعتمـده، وأخـرى تحرمـه وتمنعـه، مـن غـير سـعي إلى تقريـب المنـاهج ومحاولـة للتـصالح بـين الفكـرين، كـل يـدعي الحـق وينفـرد بالحقيقة.

كل يدعي وصْلا بليلَى

وليلَى لا تُقر لهم بذاكَ

ولقـد عرفـت القـرون الأولى صـورًا مـن هـذا الـصراع الناشـئ عـن عـدم الإيـمان بإمكـان تكامـل معـرفي يجمـع كـل الأطيـاف والفرقـاء ويوحـد الصفوف.

فقـد روي عـن الإمـام أحمـد رحمـة الله عليـه - وهـو الـذي كـان يمثـل مدرسـة أهـل الأثـر- أنـه قـال: «كنـا نلعـن أهـل الـرأي ويلعنونـا حتـى جـاء الـشافعي فألف بيننا»[٨].

وهـذا سـبب كـاف للـدعوة إلى توحيـد المنـاهج والمـدارس والـرؤى، واعتـماد التكامـل المعـرفي منهـج دراسـة وتـأليف، فهـو الـسبب الأنـسب لتوحيـد الصفوف وتأكيد الاتفاق ودفع الافتراق والشقاق، وصـنيع الإمـام الـشافعي رحمـة الله عليـه عـن طريـق علم أصول الفقه خير شاهد ودليل على ذلك.

وكـلام الـدكتور عبـد الحليـم مهـور باشـا قريـب مـن هـذا حيـث يقـول: «إن تـصنيف العلـوم إلى علـوم نقلية وأخرى عقلية، أو دينية وإنسانية من غير سعي جاد لمد جسور التواصل بين الحقلين يؤدي لا محالة إلى ثنائية تضع العقل في مقابل الوحي، وتنشأ عنها

أزمــة «إبــستيمية» حــادة تعــصف بعلــوم الــوحي بمختلـف التخصـصات والمجـالات، نتيجـة عـدم قـدرتها عـلى الاسـتفادة مـن المنجـزات التـي ولـدها العقـل الإنـساني، فتبقـى حينئـذ حبيـسة الممارسـات المنهجية التقليدية(٩).

خاتمة:

إن أساس بناء الحضارة الإسلامية خاصة كان قـائمًا عـلى الـدين والعلـم، فالـدين باعتبـاره ضـابطًا للعمـل البـشري مهـذبًا لـسلوكاتهم وتـصرفاتهم، والعلـم باعتبـاره محركًـا للعقـل، فالتكامـل بـين الـدين بوصـفه نـصًا والعقـل بوصـفه مـستنبطًا للعلـم مـن النص، أدى إلى ظهور علوم دينية وغير دينية كثيرة ومتنوعـة، والتـي أثـرت في بنـاء الحـضارة الإسـلامية قديمًا بناء قويمًا ومتينًا، حتى صارت أمة خيرة.

فوحدة المعرفة والتكامل بين الحقول المعرفية بالإضافة إلى كونه سببا لتحقيق الأمن الفكري، فإنه يتيح مجالًا أوسع لمعالجة جل مشكلات العصر كل حـسب تخصـصه وقدراتـه، ويـسهم في بنـاء الإنـسان والأوطـــان، وتحقيـــق التقـــدم والازدهـــار، وإن التخصص العلمي يصبح سلبيًا إذا ما انزوى المتعلم داخل تخصصه.

لهـذا وذاك كـان لزامـا علينـا إعـادة النظـر والاعتبار في قضية وحدة المعرفة داخل الجامعات والمعاهد، قصد الارتقاءبالعملية التعليمية التعلمية لكونها الرهـان الأهـم للتنمية الفردية والمجتمعية، وهي الطريق الأكثر نجاعة في تحديد حاضر الأمة ومستقبلها.

* * *

الهوامش:

(١) الضروري في صناعة النحو لابن رشد الحفيد ح منصور علي عبد السميع/ ط١ ٢٠١٠م دار الصحوة/ ص ٢٢.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في الصحيح باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام ح ٦٨٦٦.

(٣) من الاجتهاد في النص إلى الاجتهاد في الواقع لبعمر محمد ص١٣٣ ط. دار الكتب العلمية ٢٠٠٩م.

(٤) الاجتهاد في الشريعة الإسلامية للدكتور يوسف القرضاوي ص١١٢ ط٣ دار القلم ١٩٩٩م.

(٥) مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية / عدد ٤ سنة ٢٠١٢م موضوع: التكامل المعرفي في المنظومة التعليمية الجامعية د. عقيلة حسين.

(٦) تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية إبراهيم عقيلي / ص٤٤ ط ١ المعهد العلي للفكر الإسلامي ١٩٩٤م.

(٧) سنن أبي داود كتاب الطهارة باب في المجروح يتمم ح٣٣٦.

(٨) ترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض ج١ ص٩١ ح ابن تاويت الطنجي مطبعة فضالة – المغرب.

(٩) دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية بتصرف/ العدد١ سنة ٢٠١٦م ص ٢٠٦.

* * *

التقويم الهجري والميلادي: رؤية إسلامية مُتزنة

بقلم: **الأستاذ محمد رضي الرحمن القاسمي**(*)

مقدمة

يُعَدُّ التقويم أحد العناصر الأساسية لتنظيم حياة الإنسان على مستوى الأفراد والمجتمعات، حيث يُستخدم لتحديد الأيام، والأشهر، والسنوات. في العالم اليوم، هناك تقويمان رئيسان: هما التقويم الميلادي (الشمسي) والتقويم الهجري (القمري). وبينما يُستخدم الأول على نطاق عالمي كبير، فإن الثاني يتمتع بأهمية خاصة للمسلمين كونه مرتبطًا بعباداتهم وشعائرهم الدينية.

مع بداية كل عام ميلادي، نلاحظ على المستويات الشخصية والاجتماعية؛ بل وفي بعض الأحيان على المستوى الحكومي بعضَ السلوكيات؛ بل الخرافات السخيفة التي لا تجيزها الشريعة؛ بل لا يمكن أي مجتمع سليم عقليًا أن يسمح بها، بينما تظهر من ناحية أخرى ردود أفعال غير متزنة تعكس نقص الفهم الديني.

تهدف هذه المقالة إلى تسليط الضوء على أهمية كلا التقويمين، مع التركيز على مكانة التقويم الهجري وأبعاده الدينية والاجتماعية كما تحاول توضيح وجهة النظر الإسلامية الصحيحة الخالية من الإفراط والتفريط في السلوكيات.

أكثر التقويمات انتشارًا

١- التقويم الميلادي (الشمسي): سُمِّي بالتقويم الميلادي؛ لأنه يبدأ من السنة التي يُعتقد أنها سنة ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام. يعتمد هذا التقويم على حركة الشمس، حيث يُقسَّم العام إلى ١٢ شهرًا ثابتة، تبدأ بشهر يناير وتنتهي بشهر ديسمبر. ويعتبر هذا التقويم الأكثر استخدامًا على مستوى العالم، نظرًا لاعتماده في الأنظمة الإدارية، الاقتصادية، والعلمية.

٢- التقويم الهجري (القمري): سُمِّي بالتقويم الهجري نسبة إلى هجرة النبي محمد ﷺ من مكة إلى المدينة، وهي السنة الأولى التي بدأ فيها هذا التقويم. يعتمد التقويم الهجري على حركة القمر، ويتألف العام من ١٢ شهرًا قمريًا، تتراوح أيام الشهر بين ٢٩ و٣٠ يومًا بناءً على رؤية الهلال.

(*) رئيس قسم الكتاب والسنة بالجامعة الإسلامية، كيرالا

أسباب انتشار هذين التقويمين:

● التقـويم المـيلادي: يـرتبط بمـيلاد سـيدنا عيسى عليه السلام، مما يجعله التقويم المعتمد بين أتبـاع المـسيحية الـذين يمثلـون النـسبة الأكـبر مـن سكان العالم.

● التقـويم الهجـري: يتمتـع بأهميـة خاصـة للمسلمين، حيث يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعديد من العبادات الإسلامية مثل الصوم والحج والزكاة، كما أنه جزء من الهوية الثقافية والدينية للمسلمين حول العالم.

السلوكيات غير المناسبة المتعلقة ببداية العام الميلادي

ممارسات لا تتماشى مع القيم الإسلامية

مـع بدايـة الـسنة الميلاديـة، تنتـشر بعـض الممارسـات الاحتفاليـة التـي تتعـارض مـع القـيم الإسلامية، مثل إقامة الحفلات الصاخبة أو التبذير في الإنفـاق في أمـور لا جـدوى منهـا. هـذه السلوكيات، إلى جانب كونها مخالفة للشرع، تُظهر افتقارًا للتوازن الذي يدعو إليه الإسلام في جميع مناحي الحياة.

التهانيء بمناسبة العام الجديد

أصبحت التهانيء بمناسبة العام الجديد، سواء الميلادي أو الهجري، شائعة بين الناس. وإذا لم يكن هذا الفعل يُعتبر جزءًا من الدين أو يُمارس بشكل دائم على أنه عبادة، فإنه لا يُعد بدعة. ومع ذلك، تبقى التهانيء عملًا غير ضروري إذا لم يكن لها فائدة دينية أو اجتماعية، ومن الأفضل للمؤمن أن ينشغل بالأعمال النافعة.

الدعاء في بداية العام:

ليس هناك حاجة لانتظار بداية العام الميلادي أو الهجـري للـدعاء بـالخير لأنفـسنا أو للآخـرين. فالإسلام يُشجعنا على التواصل مع الله بالدعاء في جميـع الأوقـات، دون ربطـه بـزمن معـين أو مناسـبة محددة.

دعوات «لا تهنئنا في يناير؛ بل في المحرم»

تنتـشر بـين الـبعض - بمناسـبة بدايـة العـام المـيلادي - رسـائل تـدعو إلى الامتنـاع عـن تقـديم التهانئ بالعام الجديـد في يناير، واستبدالها بالتهانئ في المحـرم، بحجـة أننـا مسلمون وسـنتنا هـي السنة الهجريـــة التـي تبـدأ بـالمحرم. وعـلى الـرغم مـن أن هـذه الـدعوات قـد تـصدر عـن نوايـا حسنة، إلا أنها ليـست في محلهـا؛ إذ لم يـشرع الإسـلام اعتبـار بدايـة الـسنة الميلاديـة أو الهجريـة مناسـبة خاصـة لتبـادل التهـانئ أو الـدعاء. إن القيـام بـذلك بـدافع ديني أو كممارســـة ثابتـة قـد يـؤدي إلى الوقـوع في البدعـة. فـضلًا عـن ذلـك، فـإن التقـويم المـيلادي، المـرتبط بـسيدنا عيـسى عليـه الـسلام، هـو جـزء مـن إرثنـا المشترك كبشر، وله مكانة عندنا كمسلمين بقدر ما له عند الآخرين.

أهمية التقويم الميلادي للمسلمين

بالرغم من أن الأشهر القمرية لها أهمية أكبر في الإسلام كما سيُذكر؛ لكن يجب أن نتذكر أنه كما أن القمر - الذي يُحسب به التقويم القمري - هو من خلق الله عز وجل، فكذلك الشمس - التي يُحسب بها التقويم الميلادي - هي أيضًا من خلق الله عز وجل، ويتضح من نصوص متعددة في القرآن والسنة أن كليهما - الشمس والقمر - من آيات قدرة الله عز وجل.

لذلك، سواء كانت السنة والتقويم مرتبطين بالقمر أو بالشمس، فكلاهما لنا. نعم! هناك فرق في الأهمية بين الاثنين للأسباب المذكورة أعلاه، وأيضًا لأننا كمسلمين نحن من أمة سيدنا محمد رسول الله ﷺ؛ ولكن مع إيماننا به، نؤمن أيضًا بسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام وجميع الأنبياء السابقين. لذلك، فإن التقويم المرتبط بسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام هو أيضًا تقويمنا بلا شك.

أهمية التقويم الهجري للمسلمين

١- البعد الديني للتقويم الهجري:

التقويم الهجري يُعتبر جزءًا لا يتجزأ من حياة المسلم، حيث تعتمد عليه العديد من العبادات والمعاملات، منها:

- الصيام في رمضان: يُفرض على المسلمين في الشهر التاسع من التقويم الهجري.
- عيد الفطر: يقع في اليوم الأول من شهر شوال.
- الحج: يتم في شهر ذي الحجة، بين يوم الثامن والثاني عشر أو الثالث عشر من الشهر.
- الصيام المسنون: الأيام الثلاثة البيض (١٣، ١٤، ١٥) من كل شهر قمري، وصيام يومي التاسع والعاشر أو العاشر والحادي عشر من شهر المحرم.
- الأشهر الحرم: ذوالقعدة، ذوالحجة، المحرم، ورجب، تحظى بمكانة خاصة في الإسلام.

٢- البعد الاجتماعي للتقويم الهجري:

إلى جانب العبادات، يُستخدم التقويم الهجري لتحديد العديد من الأحكام والمعاملات، مثل:

- حساب الزكاة: يعتمد على الحول الهجري.
- تحديد عدة المرأة: وفقًا للأشهر القمرية.

الإهمال تجاه التقويم الهجري:

رغم أهمية التقويم الهجري، نجد أن الكثير من المسلمين اليوم يجهلون حتى أسماء الأشهر الهجرية، فضلًا عن معرفة تواريخها أو ارتباطها بالأحكام الشرعية. هذا الإهمال قد يؤدي إلى مخالفات شرعية جسيمة، ويُعتبر تفريطًا في شعيرة من شعائر الدين.

مسؤولية تعزيز استخدام التقويم الهجري

التعليم والتوعية:

- يجب أن يبدأ تعليم الأطفال بأسماء الأشهر الهجرية ومعانيها منذ الصغر.

● تـضمين موضـوعات حـول أهميـة التقـويم الهجـري في المنـاهج الدراسـية، خاصـة في الـدول الإسلامية.

التطبيق العملي:

● اعـــتماد التقـــويم الهجـــري في المواعيـــد الشخصية والأسرية، مثل المناسبات والاحتفالات.

● اسـتخدام التقـويم الهجـري في التعـاملات اليومية، كالأعمال التجارية وتوثيق الأحداث.

دور الأسرة والمجتمع:

● عـلى الآبـاء والمعلمـين تحمـل مسؤولية نـشر الوعي حول التقويم الهجري بين الأجيال الجديدة.

● إقامـة بـرامج ونـدوات توعويـة حـول أهميـة التقويم الهجري في حياة المسلم.

حكمة اعتماد التقويم القمري في الإسلام

التوافق مع مختلف البيئات الجغرافية:

في بعض المناطق، تكون الشمس مشرقة لستة أشهر ومختفية لستة أشهر أخرى، مما يجعل التقويم الشمسي صعب الاعتماد عليه. بالمقابل، يظهر القمر ويختفي بشكل طبيعي في كل مناطق العالم، مما يجعل التقويم القمري أكثر دقةً وملاءمةً.

تعزيز اليقظة والارتباط بالطبيعة:

الاعتماد على رؤية الهلال يُشجع المسلمين على البقاء متيقظين ومترابطين مع الطبيعة. كما أن تحديد بداية الشهر ونهايته بناءً على الرؤية يجعل المسلمين أكثر وعيًا بالتغيرات الفلكية، ويُضفي عنصرًا من التشويق على المناسبات الدينية مثل العيدين.

العالمية والمرونة:

الإسلام دين عالمي يناسب جميع البشر، بغض النظر عن مواقعهم الجغرافية أو ظروفهم المناخية. واختيار التقويم القمري يعكس مرونة الإسلام واهتمامه بتوفير نظام يناسب الجميع.

خاتمة

التقويم الهجري ليس مجرد وسيلة لتحديد التواريخ؛ بل هو نظام يحمل أبعادًا روحانية، دينية، واجتماعية تعكس ارتباط المسلم بدينه وهويته. يجب على المسلمين بذل المزيد من الجهد للتعرف على هذا التقويم وتقديره واستخدامه في حياتهم اليومية. إن تعزيز مكانة التقويم الهجري ليس فقط واجبًا دينيًا؛ بل هو أيضًا جزء من الحفاظ على التراث الإسلامي والهوية الثقافية للأمة.

توصيات مستقبلية:

١- إطلاق مبادرات تعليمية وتوعوية لتعزيز مكانة التقويم الهجري.

٢- تطوير تطبيقات تكنولوجية تُساعد في نشر الوعي بالتقويم القمري وتيسير استخدامه.

٣- دعـم الأبحـاث الأكاديميـة التـي تتنـاول أهمية التقويم الهجري ودوره في حياة المسلمين.

* * *

الإمام المفسر أبو جعفر محمد بن جرير الطبري

بقلم: **الشيخ عبد الفتاح أبو غدة**

الإمـام المجتهِـدُ أبـو جعفـر محمـد بـن جريـر الطبري، الحُجَّةُ، المفسِّر، المحدِّث، الفقيه، الأصولي، النظَّـار، المُقْـرئ، المـؤرِّخ، اللغـوي، النَّحْـوي، العَـرُوضي، الأديـب، الراويـةُ، الـشاعر، المحقِّـق المـدقِّق، جـامعُ العلـوم والمفـاخر، وذو التـصانيف والمآثر، المجتهدُ المطلَق، وأحَدُ أئمة الدنيا علمًا ودينًا وحفظًـا وكثـرةَ تـآليفَ جيـاد، المولـود سـنة ٢٢٤، والمتـوفى سـنة ٣١٠ رحمـه الله تعـالى، وقـد طبَّقـتْ شُـهرتُه الآفـاقَ، وصـار اسـمُه (العَلَـمَ المفـردَ) عنـد الإطلاق.

وأَقطِفُ هنا جُمَلًا من ترجمتِهِ ا لحافلة الوارفة، في «معجـم الأدبـاء» للعلامـة يـاقوت الحمـوي، وفي «تـاريخ بغـداد» للخطيـب البغـدادي رحمهـما الله تعالى[1].

وُلِـدَ في بلـدةِ آمُـلَ مـن بـلاد طَبَرِسْـتان، وحَفِـظ القرآن وعمره سبعُ سنين، وكَتَـب الحديثَ وعُمرُه تِسعُ سنين، ورَحَل في طلب العلم يافعًا وعُمرُه اثنتا عـشرة سـنة، في عـام ٢٣٦ حـين سَـمَح لـه أبـوه بالرحلة، ودخل بغداد بعد وفاة أحمد بن حنبل سنة ٢٤١ فلـم يلقـه، وطـوَّف أقـاليمَ الإِسـلام لتحـصيل العلـم ولقـاءِ العلـماء، فجـال بـلادَ خُراسـان والعـراق والشام ومصر، ثم استوطن بغداد، وأقام بها إلى حين وفاتِه رحمة الله عليه. وقد حاز مقامَ الإِمامة في العلم وهو في مقتبَل شبابه، ثم غدا إمامًا فذًّا، مشهودًا له، مرجوعًا إليه، في العصور وعلى مَرِّ الدهور.

قال الإِمام الحافظ أبو بكر الخطيب في «تاريخ بغـداد»، في ترجمتـه: كـان أحَـدَ أئمـة العلـماء، يُحكَـمُ بقولـه، ويُرجَـعُ إلى رأيـه، لمعرفتِه وفضلِه، وكـان قـد جَمَـع مـن العلـوم مـا لم يـشاركه فيـه أحـدٌ مـن أهـل عـصره، وكـان حافظًـا لكتـاب الله عـز وجـل، عارفًـا بالقراءات، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكام القرآن، عالمًـا بالـسُّنَن وطُرُقهـا، وصـحيحِها وسـقيمِها، وناسِـخها ومنـسوخِها، عارفًـا بـأقوال الـصحابة والتـابعين ومـن بعـدَهم مـن الخَـالِفِين، في الأحكـامِ ومـسائلِ الحـلال والحـرام، عارفًـا بأيـام النـاس وأخبارِهم.

وله التفسيرُ المشهورُ الذي لم يُصنِّف أحدٌ مثلَه: «جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن»، وله الكتاب المشهور في التاريخ «تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والأُمَم»، و«تهذيبُ الآثار وتفصيلُ الثابت عن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من الأخبار» لم أر سواه في معناه، إلَّا أنه لم يُتمَّه! وله في أصول الفقه وفروعه كتبٌ كثيرة، واختيارٌ من أقاويل الفقهاء. وتفرَّدَ بمسائل حُفِظَتْ عنه.

قال الإمام أبو حامد أحمد بن محمد الإِسْفِرايني الفقيه[٢]: لو سافر رجلٌ إلى الصِّين، حتى يَحْصُلَ له «تفسيرُ ابن جرير»، لم يكن ذلك كثيرًا. وقال الإمام أبو بكر بن خُزَيمة بعد أن وَقَف عليه: نظرتُ فيه من أوَّلِه إلى آخره، وما أعلمُ على أديم الأرض أعلمَ من ابن جرير.

وحدَّث علي بن عُبَيد الله اللغوي ا لسِّمْسِي، عن القاضي أبي عمر عبيد الله بن أحمد السِّمْسَار وأبي القاسم بن عقيل الورَّاق: أنَّ أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: أتنشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قَدْرُه؟ قال: ثلاثون ألفَ ورقة، فقالوا: هذا مما تَفنَى الأعمارُ قبلَ تمامِه! فاختَصَره في نحوِ ثلاثةِ آلافِ ورقة، وأملاه في سبع سنين، من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين.

ثم قال لهم: أتنشطون لتاريخ العالَم من آدم إلى وقتِنا هذا؟ قالوا: كم قَدْرُه؟ فَذَكَر نحوًا مما ذكره في التفسير، فأجابوه بمثلِ ذلك! فقال: إنَّا لله! ماتَتْ الهِمَم! فاختَصَره في نحوٍ مما اختَصَر التفسير، وفَرَغ من تصنيفه ومن عَرْضِه – أي قراءتِه – عليه يومَ الأربعاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثِ مئة، وقَطَعَه على آخِرِ سنةِ اثنتين وثلاثِ مئة.

قال الخطيب: وسمعتُ السِّمْسِميَّ يحكي أن ابن جرير مكث أربعين سنة، يكتب في كل يوم منها أربعين ورقة. وحدَّث تلميذُه أبو محمد عبد الله بن أحمد بن جعفر الفَرْغَاني، في كتابه المعروف بكتاب «الصِّلَة»، وهو كتاب وَصَل به «تاريخ ابن جرير»: أنَّ قومًا من تلاميذ ابن جرير، حَصَّلوا أيامَ حياتِه، منذ بَلَغ الحُلم إلى أن تُوفي وهو ابنُ ستٍّ وثمانين سنة، ثم قَسَموا عليها أوراقَ مصنَّفاته، فصار منها على كل يوم أربعَ عشرةَ ورقة. وهذا شيء لا يتهيأ لمخلوقٍ إلَّا بحُسنِ عنايةِ الخالِق.

وحكى تلميذُه أبو بكر بن كامل – أحمد بن كاملٍ الشَّجَريُّ القاضي صاحبُ ابن جرير – قال: قال لي أبو جعفر: حَفِظتُ القرآنَ ولي سبعُ سنين، وصلَّيتُ بالناس وأنا ابنُ ثماني سنين[٣]، وكتبتُ الحديث وأنا ابنُ تسع سنين. ورأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكان معي

مِخلاةٌ مملوءةٌ حجارةً، وأنا أرمي بين يديه فقال له المعبِّر: إنه إن كَبِرَ نَصَح في دينه وذّبَّ عن شريعته. فحَرَص أبي على معونتي على طلب العلم وأنا حينئذٍ صغير.

وكنا نكتبُ عند محمد بن حُمَيد الرازي، فيَخرُجُ إلينا في الليل مرات، ويَسأَلُ عما كتبناه، ويقرؤه علينا. وكنا نمضي إلى أحمد بن حَمَّاد الدُّولَابي، وكان في قرية من قرى الرَّيّ، بينها وبين الريّ قطعة، ثم نَعْدُو كالمجانين! حتى نَصِيرَ إلى ابن حُمَيد فنلحقَ مجلسَه(٤). ويقال: إنه كتَبَ عن ابن حُمَيد فوقَ مئةِ ألفِ حديث.

وصَارَ في رحلته إلى الكوفة، فكتَبَ فيها عن عدد من المحدِّثين، ومنهم أبو كُرَيب محمد بن العلاء الهَمْدَاني، وكان هذا شَرِسَ الخُلُق ومن كبار أصحاب الحديث.

قال أبو جعفر: حضرتُ بابَ داره مع أصحاب الحديث، فاطَّلع من باب خَوْخَة له – الخَوْخةُ: البابُ الصغير على الباب الكبير –، وأصحابُ الحديث يلتمسون الدخولَ ويَضِجُّون، فقال: أيكم يَحفظُ ما كَتَب عني؟ فالتَفَتَ بعضُهم إلى بعض، ثم نظروا إليَّ وقالوا: أنت تحفظُ ما كتبتَ عنه؟ قلتُ: نعم، فقالوا: هذا فسَلْهُ، فقلتُ: حدَّثْتَنَا في يومِ كذا بكذا، وفي يومِ كذا بكذا.

قال: وأَخَذ أبو كُرَيب في مسألته، إلى أن عَظُمَ في نفسه، فقال له: ادخُلْ إليَّ، فدَخَلَ إليه وعَرَف قدرَه على حداثته، ومكَّنه من حديثه، وكان الناسُ يَسمعون به – أي بسببه –، فيقال: إنه سَمعَ من أبي كُرَيب أكثَرَ من مئةِ ألفِ حديث. ثم عاد إلى مدينة السلام: بغداد فكتب بها ولَزِمَ المُقامَ بها مدةً، وتفقَّه بها وأَخَذ في علوم القرآن، ورَوَى الشعر عن ثعلب، قال أبو عُمَر محمد بن عبد الواحد الزاهد: سمعتُ ثعلبًا يقول: قرأ عليَّ أبو جعفر الطبري شعر الشعراء، قبل أن يكثر الناسُ عندي بمدة طويلة.

ثم غرَّب فخرج إلى مصر، وكتب في طريقه عن المشايخ بأجناد الشام والسواحل والثغور، وأكثَرَ منها، ثم صار إلى الفُسطاط في سنة ثلاث وخمسين ومئتين، وكان بها بقيَّةٌ من الشيوخ وأهلِ العلم، فأكثَرَ الكتابة عنهم من علوم مالك والشافعي وابنِ وهب وغيرِهم، ثم عاد إلى الشام.

ثم رجع إلى مصر في سنة ست وخمسين ومئتين، قال أبو جعفر: لما دخلتُ مصر لم يَبق أحدٌ من أهل العلم إلَّا لَقِيَني وامتَحَنني في العلم الذي يَتحقَّقُ به.

فجاءني يومًا رجل، فسألني عن شيء من العَرُوض، ولم أكن نشطتُ له قبلَ ذلك، فقلتُ له:

عليَّ قولٌ أن لا أتكلَّم اليومَ في شيء من العروض، فإذا كان في غدٍ فصِرْ إليَّ، وطلبتُ من صديق لي «العَرُوض» للخليل بن أحمد، فجاء به، فنظرتُ فيه ليلتي، فأمسيتُ غيرَ عروضي، وأصبحتُ عَرُوضيًّا.

وفي خلال تَطوافه في البلدان، وارتحالِه لتلقي العلوم من كبار العلماء، لقي الألاقيَّ والشدائد، ومَسَّه الجُوعُ والعُدمُ والإملاقُ غيرَ مرة! حتى فتَق كُمَّيْ قميصِه وباعَهما، ليقتاتَ بثمنهما! حين أبطأتْ عليه نفقةُ والده! وأملَق وجاع حينما كان بمصر في حدود سنة ٢٥٦.

قال أبو محمد عبد العزيز بن محمد الطبري: كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ، على ما لا يجهله أحدٌ عَرَفه، لجمعِهِ من علوم الإسلام ما لم نعلمه اجتمع لأحد من هذه الأمة، ولا ظَهَر من كُتُب المصنِّفين، وانتشر من كُتُب المؤلِّفين ما انتَشَر له.

وكان راجحًا في علوم القرآن والقراءاتِ والتاريخ من الرسل والخلفاء والملوك، واختلافِ الفقهاء، مع الرواية كذلك، على ما في كتاب «البسيط» و«التهذيب» و«أحكام القراءات»، من غير تعويل على المناولات والإجازات، ولا على ما قيل في الأقوال؛ بل يَذكُر ذلك بالأسانيد المشهورة.

وقد بان فضلُه في علم اللغة والنحو، على ما ذكره في كتاب «التفسير» وكتاب «التهذيب» مخبِرًا عن حاله فيه. وقد كان له قَدَمٌ في علم الجدل، يدل على ذلك مناقضاتُه في كتبه على المُعارِضين لمعاني ما أَتَى به. وكان يحفظ من الشعر للجاهلية والإسلام، ما لا يَجهله إلَّا جاهل به. وكان قد نَظَر في المنطِق والحساب والجبر والمقابلة، وكثيرٍ من فنون أبواب الحساب، وفي الطب، وأَخَذَ منه قسطًا وافرًا يَدلُّ عليه كلامُه في الوصايا.

وكان فيه من الزهد، والورع، والخشوع، والأمانة، وتصفية الأعمال، وصدقِ النية، وحقائقِ الأفعال: ما دَلَّ عليه كتابُه «أدَبُ النفوس الجيِّدة والأخلاقِ النفيسة». وكان شديدَ التوقي والحذر والنزاهة والورع. ومع ما كان فيه من الاشتغال بالتصانيف والحديث والإملاء: لا بُدَّ له مع ذلك من حِزبه من القرآن، ويقال: إنه كان يقرأ كلَّ ليلة رُبعًا أو حظًّا وافرًا.

وكان أبو جعفر مجوِّدًا في القراءة موصوفًا بذلك، يَقصِدُه القُرَّاءُ البُعَداءُ والناسُ للصلاة خلفَه يَسمعون قراءتَه وتجويدَه، قال أبو بكر بن مجاهد – أحمد بن موسى البغدادي – شيخُ القراء في عصره: ما سمعتُ في المِحراب أقرأَ من أبي جعفر ابنِ جرير.

وقال أبو علي الطُّوْماري: كنتُ أحمل القنديل

في شهر رمضان بين يدي أبي بكر بن مجاهد إلى صلاة التراويح، فخَرَج ليلةً من ليالي العشر الأواخر من داره، واجتاز على مسجد فلم يدخله وأنا معه، وسار حتى انتهى إلى آخر سوق العَطَش فوقف بباب مسجد محمد بن جرير، ومحمد يقرأ سورة الرحمن، فاستمع قراءتَه طويلًا ثم انصرف، فقلتُ له يا أستاذ: تركتَ الناس ينتظرونك وجئت تسمعُ قراءةَ هذا؟! فقال: يا أبا علي، دَعْ هذا عنك، ما ظننتُ أن الله تعالى خَلَقَ بَشَرًا يُحسِنُ يَقرأُ هذه القراءة.

وكان أبو جعفر يَكره أن يَخُصَّ أحدًا من الطلبة بشيء من العلم دون سائر الجماعة، فحرَصَ أبو بكر ابن مجاهد – مع موضعه في نفسِه وعند أبي جعفر – أن يَسمع منه منفردًا قراءةَ وَرْش عن نافع، عن يونس بن عبد الأعلى، عنه، وكان يُقصَدُ فيها، فأبَى إلا أن يَسمعها مع الناس، مما أثَّر ذلك في نفس أبي بكر بن مجاهد. وكان إذا قرأ عليه جماعةٌ كتابًا، ولم يَحضره أحدُهم لا يأذَنُ لبعضهم أن يقرأ دون بعض. وإذا سأله إنسانٌ في قراءةِ كتاب وغاب لم يُقرِئه حتى يَحضُر.

وكان عازفًا عن الدنيا تاركًا لها ولأهلها، يَرفَعُ نفسَه عن التماسها، وكان كالقارئ الذي لا يعرف إلا القرآن، وكالمحدِّثِ الذي لا يَعرف إلا الحديث، وكالحاسِبِ الذي لا يَعرف إلَّا الحساب، وكان عالمًا بالعبادات، جامعًا للعلوم، وإذا جَمعتَ بين كتبِه وكتبِ غيره، وَجدتَ لكتبه فضلًا على غيرها.

وكان أبو جعفر ظريفًا في ظاهره، نظيفًا في باطنه، حَسنَ العِشرةِ لمجالسيه، متفقِّدًا لأحوال أصحابه، مُهذَّبًا في جميع أحواله، جميلَ الأدب في مأكلِه، وملبسِه، وما يَخُصُّه في أحوالِ نفسه، منبسِطًا مع إخوانه، حتى ربما داعَبَهم أحسنَ مُداعبة، وربما جِيءَ بين يديه بشيء من الفاكهة، فيُجرِي في ذلك المعنى ما لا يَخرُجُ عن العلم والفقه والمسائل، حتى يكون كأجَدِّ جِدٍّ وأحسَنِ عِلم.

وقد كان يمضي إلى الدعوة يُدعى إليها، وإلى الوليمة يُسأل فيها، ويكون ذلك يومًا مشهودًا من أجله، وشريفًا بحضوره، وكان يَخرج مع بعضهم إلى الصحراء فيأكل معهم. وكان إذا دخل منزلَه بعد المجلس، لا يكادُ يَدخُلُ إليه أحدٌ، لتشاغُلِهِ بالتصنيف، إلا في أمرٍ مهم(٥).

وكان إذا أَهدى إليه مُهدٍ هديةً مما يمكنه المكافأةُ عليه، قَبِلَها وكافأه، وإن كانت مما لا يمكنه المكافأةُ عليها رَدَّها واعتَذَر إلى مُهديها. ووجَّه إليه أبو الهيجاء بنُ حمدان – الأميرُ عمُّ سيفِ الدولة – ثلاثة آلاف دينار، فلما نَظَر إليها عَجِبَ منها، ثم قال: لا أقبلُ ما لا أقدِرُ على المكافأة عنه، ومن أين لي ما أُكافِئُ به عن هذا؟ فقيل: ما لهذا مكافأة، إنما

أراد التقرب إلى الله عز وجل، فأبى أن يَقبَله وردَّه إليه. وأَهدى إليه أبو المحسن المحرَّرُ جارُه فَرْخَين، فأَهدى إليه ثوبًا.

وكان يختلفُ إليه أبو الفرج الأَصْبَهاني، الكاتب، يَقرأ عليه كتبه، فالتَمَس أبو جعفر حَصِيرًا لصُفَّةٍ له صغيرة، فدخل أبو الفرج الأصبهاني وأَخَذَ مقدارَ الصُّفَّة، واستَعملَ له الحَصير – أي أوصى أن تُعملَ له –، متقرِّبًا بذلك له، وجاءَهُ به وقد وَقَع موقعَه، فلما خَرَج دعا ابنَه – أي ابنَ أبي الفرج – ودَفَعَ إليه أربعة دنانير، فأبى أن يأخذها، وأبى أبو جعفر أن يأخذ الحصيرَ إلَّا بها.

وقال أبو بكر بن كامل: كان أبو جعفر مَلِيًّا بما نَهَض فيه ، من أيّ علم كان، وكان متوقِّفًا عن الأخلاق التي لا تليقُ بأهل العلم، ولا يُؤثِرُها إلى أن مات، وكان يُحِبُّ ا لجِدَّ في كلِّ أحوالِه. وقال لنا أبو جعفر: ما حَلَلْتُ سَرَاويلي على حرام ولا حلال قط[٦]. وسأله يومًا سائل عن نَسَبِه، فقال: محمدُ بن جرير، فقال السائل: زِدنا في النَّسَب، فَانشَده لرُؤْبَة:

قد رَفَعَ العَجَّاجُ ذِكري فادْعُني

باسْمِي إذا الأنسابُ طالَتْ يَكْفِني

وحضرتُه حين حَضَرتْهُ الوفاةُ، فسألتُه أن يَجعل كلَّ من عاداه في حِلّ، وكنتُ سألتُه ذلك لأجل أبي عليٍّ الحسنِ بن الحُسَين الصوَّاف، لأني كنتُ قرأتُ عليه القرآن، فقال: كلُّ من عاداني وتكلَّم فيَّ في حِلّ، إلا رجلًا رماني ببدعة.

وكان الصَّوَّافُ من أصحاب أبي جعفر، وكانت فيه سلامة، ولم يكن فيه ضبطُ رَوِيَّة العَقْل، فلما أملى أبو جعفر «ذَيْلَ المذيَّل»، ذَكَرَ أبا حنيفة وأطراه، وقال: كان فقيهًا عالمًا ورِعًا، فتكلَّم الصوافُ في ذلك الوقت في أبي جعفر، لأجل مدحِهِ لأبي حنيفة، وانقطع عن أبي جعفر، وبَسَط لسانَه فيه!

قال أبو بكر بن كامل: قال لي أبو علي محمد بن إدريس الجَمَّال – وكان من وجوه الشهود بمدينة بغداد –: حضرنا يومًا مع أبي جعفر الطبري وليمةً، فجلستُ معه على المائدة، فكان أجملَ الجماعة أكلًا، وأظرفَهم عِشرة، ما رأيتُ أطرفَ أكلًا منه، كان يُدخِلُ يدَه في الغَضَارة – هي القصعة الكبيرة –، فيأخذ منها لقمةً، فإذا عاد بأُخرى، كَسَح – أي مَسَح – باللقمة ما التَطَخ من الغَضَارة باللقمةِ الأولى، فكان لا يَلتطِخُ من الغَضَارة إلا جانبٌ واحد.

وكان إذا تناول اللقمة ليأكل سَمَّى، ووضَعَ يدَه اليسرى على لحيته ليُوقِّيها من الزُّهومة – يعني من أثر الذَّفَر –، فإذا حَصَلَتْ اللقمةُ في فيه أزالَ

يـدَه، وكـان إذا جَلَـس لا يكـاد يُسمَعُ لـه تَـنخُّمٌ ولا تَبصُّق، ولا يُرى له نُخامة، وإذا أراد أن يَمسح رِيقَه، أَخَذَ ذُؤابةَ مِنديلِه ومَسَح جانبَيْ فيه.

قال أبو بكر بن كامل: ولقد حَرَصتُ مِرارًا أن يَستويَ لي مثلُ ما يفعلُه، فيتعذَّرُ عليَّ اعتيادُه! وما سمعتُه قطُّ لاحِنًا، ولا حالفًا بالله عز وجل. وكان حسَنَ القيامِ على نفسه.

وكان لا يَعدَمُ في الصيف الحَيْسَ – هو التَّمْر يُخلَطُ بالسَّمْن والأقِطِ ويُعجَنُ شديدًا، وربما جُعل فيه السَّوِيق – ، والرَّيحانَ واللَّيْنَوْفَر – ضَرْبٌ من الرياحين يَنبُتُ في المياهِ الراكدة –، فإذا أكل نام في الخَيْش – ثيابٌ في نسجها رِقَّة، وخُيوطُها غلاظ، تُتَّخذُ من مُشَاقَةِ الكَتَّان، تُلبَس في الحرّ عند النوم –، في قميصٍ قصير الأكمام، مصبوغٍ بالصَّنْدَلِ وماءِ الوَرْد[٧].

ثم يقوم فيصلي الظهرَ في بيته، ويكتُب في تصنيفِه إلى العصر، ثم يَخرُج فيصلي العصر، ويَجلِسُ للناس يُقرِئُ ويُقرأُ عليه إلى المغرب، ثم يَجلِسُ للفقه والدَّرْس بين يديه إلى العِشاءِ الآخِرة، ثم يَدخُلُ منزلَه. وقد قَسَم ليلَه ونهارَه في مصلحة نفسه، ودِينِه، والخَلْق، كما وفَّقه الله عزَّ وجل.

وكان أسمَرَ إلى الأُدْمَة، أعينَ، نحيفَ الجسم مَديدَ القامة، فصيحَ اللسان، كبيرَ اللحية، ولم يُغيِّر شَيْبَه، وكان السَّوادُ في شَعْرِ رأسهِ ولحيته كثيرًا.

قال الأستاذ محمد كُرْد علي في «كنوز الأجداد»[٨]، في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري: «وما أُثِرَ عنه أنه أضاع دقيقةً من حياته في غير الإفادة والاستفادة، رَوَى المَعَافَى بن زكريا عن بعضِ الثقات، أنه كان بحضرة أبي جعفر الطبري رحمه الله تعالى قبلَ موته، وتوفي بعدَ ساعةٍ أو أقلَّ منها، فذُكِرَ له هذا الدُّعاءُ عن جعفر بن محمد[٩]، فاستدعَى محبرةً وصحيفةً فكتبه، فقيل له: أفي هذه الحال؟! فقال: ينبغي للإنسان أن لا يدَعَ اقتباسَ العلم حتى الممات». انتهى.

قلتُ: رحمك الله تعالى يا أبا جعفر، لقد استنفدت الجهد والدقائق والثواني في خدمة العلم وتحصيله، ونشره وتدوينه، فكنتَ إمامًا وقُدوةً في حياتك وبعد مماتك، ويَصدق عليك قولُ القائل:

سَعِدَتْ أعينٌ رأتْك وقَرَّتْ

والعُيونُ التي رأتْ من رآكا

وتوفي لأربع بقين من شوال سنة ٣١٠، عن ٨٦ سنةً، عَزَبًا لا زوجة حولَه، ولا ولَدَ له بعدَه، وإنما خلَّف وأبقى من العلم المؤلَّفاتِ الحافلة، ما لا يُنسَى ولا يُجهَل على وجه الدهر، فكانت تآليفُهُ الكثيرةُ النادرةُ، ذُرِّيَّتَه الباقيةَ المذكِّرةَ به البارَّة؛ بل كانت أدومَ تذكيرًا به من النَّسْل والأولاد، رحمةُ الله

عليه. وصَدَق الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى إذْ قال: كتابُ العالم وَلَدُه المخلَّد[١٠].

قال أبو بكر الخطيب: ولم يُؤذَن به أحد، فاجتمع على جنازته من لا يُحصِي عدَدَهم إلَّا اللهُ تعالى، وصُلِّي على قبره عِدَّةَ شُهورٍ ليلًا ونهارًا، ورثاه خَلْق كثير من أهل الدين والأدب.

وعَمِلَ الإمامُ الأديب اللغوي أبو بكر بن دُرَيْد (محمد بن الحسن) البصري، في رثائه قصيدةً رنَّانةً بلغَتْ ٣٥ بيتًا، أوردها كاملةً الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد»[١١]، وأورد بعضَها الحافظ الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[١٢] في ترجمته، وهي من أروع الشعر وأجزله، وأصدقه وأفضله، جسَّمَتْ أخلاقَ الإمام ابن جرير، وسجَّلتْ فضائله، وسأسوقها بعد قليل.

وقد أفرد غيرُ واحد من العلماء سِيرتَه بالتأليف، فمنهم صاحبُه وتلميذُه أبو بكر بن كامل، وعبد العزيز ابن محمد الطبري، وعن هذين الكتابين نَقَل ياقوت في «معجم الأدباء» مُعْظَمَ ترجمتِه، كما أشار إلى ذلك في آخر ترجمة ابن جرير[١٣]. وألَّف في سيرته أيضًا الوزيرُ جمالُ الدين القِفطي الحلبي (علي بن يوسف)، المتوفى سنة ٦٤٦، وسمَّاه: «التحرير في أخبار محمد بن جرير»، وذَكَرَ ذلك في كتابه «إنباه الرواة»[١٤]، في ترجمة ابن جرير، وقال: «وهو كتابٌ مُمْتِع».

قصيدة الإمام ابن دُرَيد[١٥] في رِثاءِ الإمام ابن جرير رحمهما الله تعالى:

لن تَستطيع لأمرِ الله تعقيبا
فاستَنْجِدِ الصبرَ أَوْ فاستشعِرِ الحُوْبا[١٦]

وافزَعْ إلى كَنَفِ التسليم وارْضَ بما
قَضَى المُهَيْمِنُ مكروهًا ومحبوبا

إنَّ العَزَاء إذا عَزَّتْهُ جائحةٌ
ذَلَّتْ عَرِيكتُهُ فانقاد مَجْنُوبا[١٧]

فإنْ قَرَنْتَ إليه العَزْمَ أيَّده
حتى يعودَ لديه الحُزْنُ مغلوبا

فارْمِ الأَسَى بالأُسَى تُطفِي مَواقِعُها
جَمْرًا خِلالَ ضُلوع الصَّدرِ مَشْبُوبا[١٨]

من صاحَبَ الدهرَ لم يَعْدَمْ مُجَلْجِلَةً
يَظَلُّ منها طَوالَ العيشِ منكوبا[١٩]

إنَّ البَلِيَّة لا وَفْرٌ تُزعْزِعُه
أيدي الحوادثِ تشتيتًا وتشذيبا[٢٠]

ولا تَفرُّقُ أُلَّافٍ يَفُوتُ بهم
بَيْنٌ يُغادِرُ حَبْلَ الوَصْلِ مقضوبا[٢١]

لكنَّ فِقدانَ من أَضحى بمَصْرَعِه
نورُ الهُدَى وبَهاءُ العلم مَسْلُوبا

* * *

أَودَى أبو جعفر والعلمُ فاصطحبا
أعظِمْ بذا صاحبًا إذْ ذاك مصحوبا[٢٢]

إنَّ المَنِيَّة لم تُتلِف به رجلًا ... فأيقَظَ الفِكرَ ترغيبًا وترهيبا

بل أتلَفَتْ عَلَمًا للدِّين منصوبا ... تَجْلُو مواعظُه رَيْنَ القلوب كما

أَهْدَى الرَّدَى للثَّرَى إذْ نالَ مُهْجَتَه ... يجلو ضِياءُ سَنَا الصُّبحِ الغَياهِيبَا[٢٩]

نَجْمًا على من يُعادِي الحقَّ مَصْبُوبا ... سِيَّانِ ظاهِرُه البادِي وباطنُه

كان الزمانُ به تَصْفُو مَشاربُه ... فلا تَراه على العِلَّاتِ مَجْدُوبا[٣٠]

فالآنَ أصبحَ بالتكدير مقطوبا[٢٣] ... لا يأمَنُ العجزَ والتقصيرَ مادِحُه

كلَّا وأيامِهِ الغُرِّ التي جَعَلَتْ ... ولا يَخافُ على الإطنابِ تكذيبا

للعلم نورًا وللتقوى مَحاريبا ... ودَّتْ بقاعُ بلادِ الله لو جُعِلَتْ

لا يَنْسَرِي الدهرُ عن شِبْهٍ له أبدًا ... قَبْرًا له فحَبَاها جِسْمُهُ طِيبا

ما استَوقَفَ الحجُّ بالأَنصابِ أُرْكُوبا[٢٤] ... كانت حياتُك للدنيا وساكِنها

أَوْفَى بعَهْدٍ وأَوْرَى عند مَظْلَمةٍ ... نُورًا فأصبَحَ عنها النُّورُ محجوبا

زَنْدًا وآكَدَ إبرامًا وتأديبا ... * * *

منه وأرْصَنَ حِلمًا عند مُزْعِجةٍ ... لو تَعلمُ الأرضُ ما وارَتْ لقد خَشَعَتْ

تُغادِرُ القُلَّبِيَّ الذِّهْنِ منخوبا[٢٥] ... أقطارُها لك إجلالاً وترحيبا

إذا انتَضَى الرأيَ في إيضاح مشكلةٍ ... كنتَ المقوِّمَ من زيغ ومن ظَلَع

أعاد منهجها المطموسَ ملحوبا[٢٦] ... وفَّاك نُصحًا وتسديدًا وتأديبا[٣١]

لا يَعْزُبُ الحِلمُ في عَتْبٍ وفي نَزَقٍ ... وكنتَ جامعَ أخلاقٍ مُطهَّرةٍ

ولا يُجَرِّعُ ذا الزَّلَّاتِ تَثْريبا[٢٧] ... مُهذَّبًا من قِرافِ الجهل تهذيبا[٣٢]

لا يُولِجُ اللَّغوَ والعَوْرَاءَ مَسْمَعه ... فإن تَنلك من الأقدار طالبةٌ

ولا يُقارِفُ ما يُغْشِيه تأنيبا[٢٨] ... لم يَثْنِها العجزُ عما عَزَّ مطلوبا

إن قال قادَ زِمامَ الصدقِ مَنْطِقُه ... فإنَّ للموتِ وِرْدًا مُمْقِرًا فَظِعًا

أو آثَرَ الصمتَ أولى النفسَ تهييبا ... على كراهتِهِ لا بُدَّ مشروبا[٣٣]

لقلبه ناظِرًا تقوى سَمَا بهما ... إن يَندبوك فقد ثُلَّتْ عُروشُهمُ

وأصبح العِلمُ مَرْثِيًّا ومندوبا[٣٤]
ومن أعاجيب ما جاء الزمانُ به
– وقد يُبِينُ لنا الدَّهْرُ الأعاجيبا –
أنْ قد طوَتْكَ غُمُوضُ الأرضِ في لِحَفٍ
وكنتَ تملأُ منها السهلَ واللُّوْبَا[٣٥]

انتهت قصيدة الإمام ابن دُرَيد في رثاء الإمام ابن جرير. وما سَبَق من الجُمَل التي نقلتُها في ترجمة الإمام ابن جرير: مصداقٌ لما جاء فيها.

وما أحقَّه رحمه الله تعالى – وقد أدأَب نَفْسَه في تدوين العلم وكتابةِ التاريخ – بقول العلامة عبد الرحمن بن إسماعيل الخَوْلاني النَّحْوي، المتوفى سنة ٣٦٦، من قصيدة في رثاء شيخِه مؤرِّخ مصر ومحدِّثِها (أبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصري الصَّدَفي)، المولود سنة ٢٨١، والمتوفى سنة ٣٤٧ رحمه الله تعالى، كما في ترجمته في «وفَيات الأعيان» للقاضي ابن خَلِّكان[٣٦]:

ما زِلتَ تَلْهَجُ بالتاريخ تكتبُه
حتى رأيناكَ في التاريخ مكتوبا!

وأنا أوردُ هنا القصيدةَ التي منهاهذا البيتُ لطرافتِها وتَجانُسِ مُناسَبَتِها، وتلبيةً لتشوُّفِ القارئ إليها، وقصيدةُ ابنِ دُرَيد أبلغ.

بَثَثْتَ عِلْمَك تشريقًا وتغريبا
وعُدْتَ بعدَ لذيذِ العيشِ مندوبا
أبا سعيدٍ وما نألُوْك أن نَشَرَتْ
عنك الدواوينُ تصديقًا وتصويبا
ما زِلتَ تَلْهَجُ بالتاريخ تكتبُه
حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا!
أرَّختُ موتَك في ذُكْرِي وفي صُحُفي
لمن يُؤرِّخُني إذْ كنتُ منسوبا!
نَشرتَ عن مِصرَ من سُكَّانها عَلَمًا
مبَجَّلًا بجَمالِ القومِ منصوبا
كشفتَ عن فَخْرِهم للناسِ ما سَجَعَتْ
وُرْقُ الحَمَامِ على الأغصانِ تطريبا
أَعربتَ عن عَرَبٍ، نَقَّبتَ عن نُخَبٍ
سارَتْ مناقبُهم في الناس تنقيبا
أَنْشَرتَ ميِّتَهم حُبًّا بِنسْبتِهِ
حتى كأنْ لم يَمُتْ إذْ كان منسوبا
إنَّ المكارم للإحسان مُوجِبَةٌ
وفيك قد رُكِّبَتْ يا عبدُ تركيبا
حُجِبْتَ عنا وما الدنيا بمُظهرةٍ
شخصًا وإن جَلَّ إلَّا عاد محجوبا!
كذلك الموتُ لا يُبقِي على أحَدٍ
– مَدَى الليالي – من الأحبابِ محبوبا!

* * *

الهوامش:

(١) معجم الأدباء ١٨: ٤٠-٩٦ وتاريخ بغداد ٢: ١٦٢-١٦٩.

(٢) يقال: إسفرايني بكسر الهمزة وبفتحها، وبفتح الفاء وبكسرها، وإسفرايني بالياء الواحدة بعد الألف، وبالهمزة بدلًا عنها، وإسفراييني بيائين، كما في «تاج العروس» ٩: ٢٣٥.

(٣) كانوا يفعلون هذا في صلاة التراويح في رمضان، لأنها من النوافل، فيَجوزُفيها اقتداءُ المكلَّف بغير المكلَّف، باعتبار أن الجميع يصلون نافلة، ويكون في اقتداء الكبار بالصغير تشجيعٌ له وتفريح، وتكريمٌ لحفظِ القرآن في نفوس الناس وفي نفوس الناشئة الصغار، وما يزال هذا معروفًا في بعض البلدان الإسلامية والحمدُ لله، أسألُه تعالى أن يعود هذا الاهتمام المبارك والاقتداء الميمون إلى مساجد المسلمين، فتَفرَحَ به قلوبُ المؤمنين وتَقَرَّ بمنظره عيونُهم.

(٤) وهكذا كان الطلبة المجدون، قال الإمام ابن الجوزي في رسالته اللطيفة، التي نصح بها وَلَدَه، وسمَّاها «لَفْتَة الكَبِد في نصيحة الوَلَد»: «ولقد كنتُ أدور على المشايخ لسماع الحديث، فينقطعُ نَفَسِي من العَدْو، لئلا أُسبَق».

(٥) قد يَرى القارئ أني توسَّعتُ في هذه الترجمة، وذكرتُ فيها الكثيرَ من الأخلاق الخاصَّةِ للإمام ابن جرير الطبري، وعَمْدًا فعلتُ هذا: لمعرفةِ جزءٍ مما كانت عليه أخلاقُ الأئمة المعتبرين السالفين، ولأنَّ معشرًا مِنَّا – أخَصُّ طلبَةَ العلم وأنا منهم – يفتقرُ إلى التأدُّب بما كان عليه الإمامُ أبو جعفر بنُ جرير – وأمثالُه – ، من أخلاقٍ اكتسبها من علمه بالكتاب والسنَّةِ وسِيرة السَّلَف، ومصاحبتِهِ لهم، فأردتُ من ذكر أخلاقه الخاصَّة: الدرسَ والاستفادةَ والانطباعَ بها، والله ولي التوفيق.

وطولُ هذه الترجمة اقتضاه طولُ الثناءِ الذي اتَّصَف به صاحبُها الإمامُ ابن جرير رحمةُ الله تعالى عليه، قال أبو الطيب في مثل هذا المقام:

وقد أطال ثنائي طُولُ لابِسِه
إنَّ الثناءَ على التِّنْبالِ تِنْبالُ!

والتِّنْبَالُ والتِّنْبَالةُ: القصيرُ، جمعُهُ تنابيل وتنابلة. وأما (التَّنْبل) فمعناه الكسلان، وهي لفظة تركية ليست بعربية.

(٦) وجاء في «لسان الميزان» للحافظ ابن حجر ٥: ١٠٢، في ترجمة الإمام ابن جرير الطبري: «قال مَسْلَمةُ بن قاسم: كان محمد بن جرير حَصُورًا لا يَعرِف النساء، ورَحَل من بلده في طلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة، فلم يزل طالبًا للعلم مُولَعًا به إلى أن مات». انتهى.

(٧) وثيابُ (الخَيْش) وسيلة من وسائل التبريد للنوم في زمن ابن جرير وما قبله من عهد الخليفة المنصور، يتخذها الميسورون لدفع الحر عنهم إذا ناموا، وقد كان قبل ذاك وسائل أخرى يتبردون بها.

قال الإمام ابن جرير الطبري في تاريخه «تاريخ الأمم والملوك» ٨: ٨٢، في ترجمة الخليفة أبي جعفر المنصور، المولود سنة ٩٥، والمتوفى سنة ١٥٨ رحمه الله تعالى، ما يلي:

«ذَكَر عليُّ بنُ محمد بن سُليمان الهاشمي، أن أباه محمدًا حدَّثه أن الأكاسرة كان يُطيَّنُ لها في الصيف سَقْفُ بيتٍ في كل يوم، فتكون قائلةُ الملِك فيه، وكان يوتى بأطنان القَصَبِ والخِلَاف طُوالًا غِلاظًا، فتُرصَفَ حولَ البيت، ويؤتى بقِطَع الثلج العظام، فتُجعلُ ما بين أضعافها، وكانت بنو أمية تفعلُ ذلك، وكان أوَّلَ من اتخذ الخَيْشَ المنصور.

وذكَرَ بعضُهم أن المنصور كان يُطيَّنُ له في أول خلافته بيتٌ في الصيف يَقيلُ فيه، فاتَّخَذ له أبو أيوب الخُوزِي ثيابًا كثيفة، تُبَلُّ وتوضَعُ على سبائك – أي قِطَعٌ مَعْدِنية مستطيلة يكونُ بينها فراغات يَمرُّ الهواءُ النديُّ منها – فيجدُ بَرْدَها، فاستظرفها وقال: ما احسَبُ هذه الثيابَ إن اتُّخِذَتْ أكثفَ من هذه إلَّا حَمَلَتْ من الماء أكثر مما تحمِل، وكانت أبرَدَ، فاتُّخِذَ له الخَيْشُ، فكان ينصَبُ على قُبَّة، ثم اتخذ الخلفاءُ بعدَه الشَّرائج، واتخذها الناس».

(٨) ص ١٢٣ في الطبعة الأولى سنة ١٣٧٠، وص ١١٨ في الطبعة الثانية سنة ١٤٠٤.

(٩) لعله يشير لدعاء الفَرَج المعروف عن جعفر الصادق: اللّٰهم احرُسْني بعينك التي لا تنام...، انظره في «القول البديع» للسخاوي ص ٣٣٤.

(١٠) قال الخطيب البغدادي: التأليف يُثَبِّتُ الحفظ، ويُذْكِي القلب، ويَشحذ الطبع، ويُجيد البيان، ويكسِبُ جميلَ الذكر

وجزيلَ الأجر، ويُخلِّدُهُ إلى آخر الدهر. انتهى. من «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة ص ٣٠.

وجاء في «انتصار الفقير السالك» للراعي الأندلسي رحمه الله تعالى ص ١٩٤، ما يلي: «في الحلية» عن نُعَيم بن حماد، قال: سمعت ابن المبارك يقول: ما رأيتُ رجلًا ارتفع مثلَ مالك بن أنس، ليس له صلاةٌ ولا صيام، إلَّا أن يكون له سريرة عند الله عز وجل.

قلتُ – القائل الراعي الأندلسي –: كان مالكٌ رضي الله عنه فيما هو أفضلُ من الصلاة والصيام في حقه، كان في نشر علوم الشريعة والاقتدَاءِ – كذا ولعلها: والاهتداءِ – بها رحمه الله تعالى، ولو كان في صلاة أو صيام انقطع بموته، والعلمُ لا ينقطع بموته».

(١١) ٢: ١٦٧-١٦٩.

(١٢) ٢: ٧١٥.

(١٣) ١٨: ٩٤.

(١٤) ٣: ٩٠.

(١٥) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دُرَيْد الأَزْدي من أَزْدِ عُمَان من قحطان، البصريُّ المولد، البغدادي الوفاة، المولود سنة ٢٢٣، والمتوفى سنة ٣٢١ عن ثمان وتسعين سنةً من العمر، أَحَدُ أئمة اللغة والأدب، وكان يقال: ابنُ دُرَيد أشعَرُ العلماء وأعلم الشعراء. ولما مات قيل: مات عِلمُ اللغة. وكان أبوه من الرؤساء وذوي اليسار.

وكان رأسَ أهل علم اللغة في طبقته، وأحفظ الناس في عصره، وأوسعهم علمًا، وتصدر في العلم ستين سنة رحمه الله تعالى وغَفَر لي وله.

(١٦) الحُوْب بضم الحاء: الحُزن. واستشعره: لَبِسَه ودام عليه.

(١٧) العزاء: الصبر. والجائحة هنا: المصيبة. وعَزَّته: غَلَبَتْهُ. والمجنوبُ: الليِّنُ ا لسهل. يريد: أن الصبر إذا غلَبَتْه شِدَّةُ المصيبةِ ضَعُفَ وتليَّن.

(١٨) الأَسَى بفتح الهمزة: الحُزن. والأُسَى بضم الهمزة: جمعُ أُسوة، وهي ما يأْتسِي به الحزينُ ويَتعزَّى أي يَتصبَّر، ومنه قولهم: إنَّ الأُسَى تَدفعُ الأَسى، ذكره الزمخشري في «أساس البلاغة».

(١٩) المجلْجِلَةُ هنا يرادُ بها المصيبةُ ذاتُ الوقع الشديد، وهي لشدتها تُشبَّهُ بصوتِ الرعدِ القاصف.

(٢٠) الوَفْرُ: المالُ الكثيرُ الواسع. تُزعزعه: تُفرِّقُه.

(٢١) مقضوبًا: مقطوعًا.

(٢٢) أودى: هَلَك ومات.

(٢٣) مقطوبًا: ممزوجًا.

(٢٤) لا ينسري الدهر: لا ينكشف الزمانُ عن شِبْه له. والأُركوب بمعنى الرَّكْب لكنه أكثر منه عددًا، والرَّكْبُ: الجمعُ يَبلغُ العشرةَ فصاعدًا.

(٢٥) القُلَّبِيّ هنا: البصيرُ بتقليب الأمور الصعبة، يَخرُجُ منها بذكائه وفطانة ذهنه. والمنخوب: الضعيفُ عن حَلّ المشكلات والصعاب.

(٢٦) انتضى الرأيَ: أبداه وأظهره. وملحوبًا: واضحًا جليًّا.

(٢٧) تثريبًا: لومًا وتعييرًا بزلَّاته.

(٢٨) يعني أنه لا يضجر ويتبرم مما ينوبه ويقع عليه من النائبات.

(٢٩) الغياهيب جمع غَيْهَب، وهو الظُّلمة.

(٣٠) مجدوبًا: خاليًا من القِرى والضيافة.

(٣١) الظَّلَع بفتح اللام: المَيْل عن الحق، وقولُه: وفَّاك نُصحًا... أي وَفَّاك الله نُصحًا... أي أعطاك ذلك وافيًا تامًا على أكملِهِ وأوفاه.

(٣٢) قِراف الجهل: مُقارَبَتُه.

(٣٣) مُمقِرًا: مُرًّا شديدَ المرارة.

(٣٤) ثُلَّتْ: انهدمَتْ وتَقوَّضَتْ. والعُروش هنا: أركانُ العلم، جمعُ عَرْش وهو ركنُ الشيء. والضمير في قوله: يندبوك، يعود على العلماء، المفهوم من المقام.

(٣٥) غُموضُ الأرض: جمعُ غَمْض وهو المكانُ المطمئِنُ المنخفِض. واللِّحَفُ بكسر اللام وفتح الحاء جمعُ لِحْف بكسر اللام وسكون الحاء، وهو أصلُ الجَبَل. وضُبِطَ غلطًا في «المعجم الوسيط» بفتح اللام! وهو بكسرها كما في القاموس وشرحه. واللُّوب بضم اللام: الوَعْر.

(٣٦) ١: ٢٧٨.

* * *

النظم الدبلوماسية في الجاهليَّة والإسلام

بقلم: الأستاذ حسن فتح الباب

تمهيد:

السفير في اللغة هو الرسول والمصلح بين القوم وجمعه سفراء، وقد جاء في القاموس المحيط للفيروزآبادي في مادة سفر: «سفر وأسفر بين القوم أصلح، ومصدرها سفر وسفارة – بكسر السين وفتحها – فهو سفير». كما جاء في لسان العرب: «وقد سفر بينهم يسفر سفرا وسفارة بمعنى أصلح. وفي حديث الإمام علي رضي الله عنه أنه قال لعثمان ابن عفان رضي الله عنه: إن الناس استسفروني بينك وبينهم، أي جعلوني سفيرا وهو الرسول المصلح بين القوم. يقال: سفرت بين القوم إذا سعيت بينهم في الإصلاح.

ويتبين من هذا أن السفارة كلمة عربية أصيلة، وذلك على خلاف كلمة دبلوماسية فهي من الكلمات المستوردة التي لم تدخل في لغتنا إلا حديثا، فإن العرب في الجاهلية والإسلام لم يكونوا في حاجة إليها بالنظر إلى وجود لفظة عربية الأصل تعطى مدلولها وتغنى عنها، وترجع كلمة دبلوماسية في أصلها القديم إلى اللغة الإغريقية وكانت تعنى الوثيقة أو المكاتبة التي تطوى كما يطوى الخطاب أو الصحيفة أو السجلّ، ويبعث بها الحكام بعضهم إلى بعض في علاقاتهم الرسمية، وتخول حاملها امتيازا خاصًّا.

وقد انتقلت هذه الكلمة من اليونانية إلى اللاتينية ومنها إلى اللغات الأوروبية كالإنجليزية والفرنسية ثم إلى اللغة العربية وتطور استعمالها في أكثر من معنى عبر العصور المختلفة حتى أصبح مدلولها في العصر الحديث ينصرف إلى فن إدارة العلاقات الخارجية للدولة، أو هو بمعنى آخر ممارسة الدولة لسياستها الخارجية عن طريق المفاوضات وغيرها من الوسائل السلمية دونما حاجة إلى تنفيذ سياستها في المحيط الدولي عن طريق الالتجاء إلى الحرب. وثمة معان أخرى متنوعة تستعمل فيها كلمة الدبلوماسية جوازًا، إلا أن المدلول الذي أشرنا إليه هو المعنى المألوف

والأكثر شيوعًا. ومن هذه المعاني المتعددة التفاوض أو المفاوضـــات فيقـــال: حـــل النـــزاع بـــالطرق الدبلوماسية. ومنها: الذكاء والكياسة وما ينطوي عليه هذا المعنى من اللباقة وحسن التصرف لكسب الـود والثقـة، أو لاتقـاء مـشكلة، أو للحيلولـة دون نشوب نزاع أو استفحال خلاف، أو لتحقيق غاية بعيدة بالأساليب الودية دون استخدام العنف. وما زالت الدبلوماسية تستخدم بمعناها الذي استعملها فيـه الرومـان وهـو صـفات المبعـوث أو الـسفير أي الـشخص الـذي يوفـد في مهمـة، ومـا قـضت بـه تعليمات السفارة حينئذ من وجوب ا لتزام الأدب الوافر واصطناع المودة وتجنب أسباب النقد.

ويـستخدم لفـظ الـدبلوماسي والـسفير بمعنـى واحد أي أنهما لفظان مترادفان. وقد استقر الاصطلاح في العصر الحديث على: أن السفير هو المبعوث الذي توفده دولة ما في مهمة من المهامّ، فيسعى لإنجازها عـــن طريـــق المحادثـــات وغيرهـــا مـــن الأســـاليب الدبلوماسية مع ممثلي الدولة المرسل لديها، وهـو – بتعبير آخر – وكيل حكومته المرخص بتمثيلها لدى أي دولة أخرى في جميع المفاوضات الهامة. فالسفير في عرف علم السياسة هو ذلك الشخص المرسل رسميا من دولة إلى دولة أخرى ليكون نائبا عنها أو وكيلا لها – وقد تكون مهمته قاصرة على نقل رسالة شخصية أو خطاب شفهي أو مذكرة إلى رئيس تلك الدولة أو إلى أصحاب السلطة فيها.

ويخلـع القـانون الـدبلوماسي عـلى الـسفراء والمبعوثين حصاناتٍ وإعفاءاتٍ معينة تعرف بالحقوق والامتيـازات الدبلوماسية التي نـشأت بتواتر العـرف الـدولي. وللسفارات أغـراض شتى تختلف بـاختلاف مقاصد الدبلوماسية وأهدافها. فثمة سفارات تجارية، وسفارات سياسية، وأخرى عسكرية.

الدبلوماسية في العصر الجاهلي

ولقـد كـان المعنـى الحـديث لكلمـة (سـفارة) معروفا في تأريخ العرب والإسلام، فكانت السفارة في الجاهلية من المناصب التي دانت لقبيلة قريش وسطوتها، وكان معناها عندهم أنهم كانوا إذا وقعت بيـنهم وبـين غـيرهم مـن القبائـل حـرب وأرادوا المخابرة بشأن الصلح بعثوا سفيرا، وإن نافرهم حي لمفاخرة جعلوا السفير مفاخرًا ورضوا به.

ومن ثم عرف العرب نظام السفارة بينهم وبين غـيرهم مـن القبائـل والأمـم والـشعوب المجـاورة، فاســتخدموه في تنظــيم العلاقــات بــين بعــضهم

وبعض، وبينهم وبين غيرهم. وكان من الطبيعي أن تكثر الوفادات والسفارات في تأريخ العرب قبل الإسلام، بوصفها وسيلة ليس ثمة بديل عنها للخروج من عزلتهم في شبه الجزيرة، ولتبادل المنافع مع جيرانهم وخاصةً في الشرق والشمال فضلًا عن حاجتهم إلى كسب الأنصار في المعارك الضارية التي كانت تنشب بين القبائل أو لوقف هذه المعارك. ومن ثم أدت السفارات أغراضها لديهم سواء في السلم أو في الحرب.

وساعد على ازدهار السفارات ودخول العرب في علاقات ودية وروابط خارجية – ساعد على ذلك الموقع الإستراتيجي لشبه الجزيرة العربية والناشئ عن متاخمتها مراكز الحضارات القديمة في العالم، وهي الحضارة الأشورية في العراق، والحضارة الفينيقية في الشام، والحضارة الفارسية في بلاد فارس، وقرب الجزيرة من الحضارة الفرعونية في مصر. وكانت أكثر الدول صلة بالعرب دولتا فارس والروم وهما أكبر قوتين سياسيتين في العالم في ذلك الحين. ومن ثم توالت السفارات السياسية بين حكام هاتين الدولتين وبين القبائل العربية المقيمة على الحدود لعقد المحالفات والاتفاقات المختلفة.

وكما كانت وحدة اللغة باعثًا على توثيق صلات العرب ببعضهم قبل الإسلام، فإن مركز هم التجاري الممتاز بين الممالك والبلاد الأخرى في الشرق والغرب والشمال كان باعثًا على الاتصال وقيام العلاقات الودية؛ إذ كانت شبه الجزيرة العربية معبرًا وملتقىً للقوافل التجارية التي كانت تتخذ عدة طرق يبرز بينها طريقان أساسيان: أولهما الطريق الشرقي وهو يتاخم الخليج العربي، ويتاخم دجلة، ويقتحم بادية الشام إلى فلسطين، والثاني الطريق الغربي ويتاخم البحر الأحمر. وعن هذين الطريقين كانت تنقل مصنوعات الغرب إلى الشرق، ومتاجر الشرق إلى الغرب. وقد اقتضت هذه التجارة الدخول في محادثات لعقد الاتفاقات بين تلك الجماعات البشرية بعضها وبعض، وأتاح موقع الجزيرة مكانة تجارية ممتازة لسكانها وروابط حميدة في العالم المعروف إذ ذاك. وتحفل كتب التاريخ بأخبار رسلهم إلى الملوك ووفاداتهم ومفاوضاتهم؛ بل لقد قدمت إليهم بعثات من البلاد الأخرى تخطب ودهم وتطلب مؤازرتهم.

وإلى جانب العلاقات التجارية الخارجية بين العرب وبين البلاد المجاورة، كانت ثمة علاقات

مماثلة بين القوى السياسية داخل الجزيرة العربية. فكان هناك شريان تجاري يصل بين اليمن جنوبًا ومكة شمالًا. وقد ورد في القرآن الكريم ذكر هذه الحركة التجارية النشطة بين مكة والشام شمالًا وبينها وبين اليمن جنوبًا، وذلك بالاشارة إلى رحلة الشتاء والصيف. ومن الطبيعي أن هذه الحركة كانت تتطلب اتصالات واتفاقات دبلوماسية بين القبائل بعضها وبعض، وبين الممالك والبلاد الأخرى في سبيل توطيد العلاقات التجارية.

ومما يسر هذه الاتصالات ودعمها على مختلف أنواعها أن بلاد الشام شمالًا والجزيرة العربية جنوبًا كانتا تضمان أعظم المقدسات الدينية، فثمة بيت المقدس في مدينة القدس، والكعبة بيت الله الحرام في مكة. فكانت القوى ا لسياسية داخل الجزيرة وخارجها تنتهز حلول مواسم الزيارة والحج لعقد اللقاءات وإبرام الاتفاقات والمصالحات والمحالفات، الأمر الذي نهجه النبي عليه الصلاة والسلام بعد بعثته إذ كان يخرج في مواسم الحج لدعوة القبائل إلى دين الله.

وعرف من سفارات الجاهلية سفارة عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أبرهة ملك الأحباش، وهو في طريقه إلى مكة، مفاوضًا إياه على رد الإبل التي استولت عليها طلائع جيوش الحبشة.

ووجد منقوشا على سد مأرب ما يفيد قدوم سفارات التهنئة على أبرهة من شتى الأمصار والممالك سنة ٥٤٣ ميلادية، إثر انتصاره على الحميريين وتأسيسه أول دولة مسيحية باليمن، وذلك ما يلي:

«وجاءت إليهم سفارة النجاشي، وسفارة الروم، وسفارة ملك فارس، ومبعوث المنذر، ومبعوث من قبل الحارث بن جبلة، ومبعوث أبي خير بن جبلة، جميعهم طلبوا مودتنا بقوة من لدن الرحمن».

ومن المعروف أن آخر سفراء قريش في الجاهلية كان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل أن يسلم.

بيد أن سفارات العرب في الجاهلية ظلت قاصرةً على هذه الحدود، فلم تستوعب – في ميدان العلاقات الدولية – ما هو أفسح وأهم من مجرد العلاقات التجارية المرتهنة بظروفها.

الدبلوماسية في الدولة الإسلامية

أولا: في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين:

فلما جاء الإسلام في القرن السابع للميلاد طرأ

تغيير جذري في ميدان السفارات شأنها في ذلك شأن سائر الميادين من سياسية واجتماعية واقتصادية. فأصبحت منهجا ذا قواعد ونظم محددة تترسمها الدولة في تسيير علاقاتها بغيرها من الدول عبر العصور المختلفة.

ومن ثم نشأ نظام السفارات الإسلامية، وتطورت أغراضها ونظمها وأساليبها تبعًا لنشأة الدعوة الإسلامية، وتطويرها. فلقد اقتضت طبيعة الرسالة أن يتخذ النبي ﷺ من السفارات وسيلةً لنشر دعوته وسبيلًا إلى تأليف القلوب ودستورًا في علاقاته العامة في الجزيرة العربية ومع الأمم والشعوب الأخرى.

فكان الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هو المعلم الأول للسفراء المسلمين، وهو مؤسس نظم السفارات وواضع أصولها الثابتة وقواعدها المحددة ومنهاجها القويم الذي اتبعه خلفاؤه من بعده في سبيل تثبيت بناء الدولة الإسلامية والدفاع عن عقيدتها وكيانها.

ولا غرو فالإسلام دين ودولة، وهو شريعة النور التي أنزلت للبشر كافةً، ومحمد عليه السلام هو مبعوث السماء إلى العالمين، أرسله الله مبشرًا ونذيرًا مصداقًا لقوله تعالى في كتابه العزيز:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ (الأحزاب:٤٥-٤٦)

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (سبأ:٢٨)، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَـٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

فالنبي الكريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مرسل من عند الله، فهو سفير العناية الإلهية وحامل رسالتها إلى الناس جميعًا. ويقول الله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾(الحجرات:١٣).

وهذا التعارف الذي تدعو إليه الآية الكريمة إنما يتم بالاتصال بين الناس، أوهو بمعنىً آخر يتم من طريق السفارات بين فرد وجماعة أو بين الجماعات بعضها وبعض أو بين دولة وأخرى.

ولقد خاض الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حروبًا كثيرة ضد أعداء الإسلام، ولكنه لم يقدم على حرب منها إلا بعد أن استنفد الوسائل الودية وفي مقدمتها السفارات. ومن ثم كانت الحرب في الشريعة مشروطةً بقصد حماية الدعوة والدفاع عن النفس.

فإن حض الإسلام على النضال فقد دعا كذلك إلى نشر العقيدة بالطرق السلمية. قال تعالى:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل:١٢٥).

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (العنكبوت:٤٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ (البقرة:٢٠٨).

﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيّٞ حَمِيمٞ﴾ (فصلت:٣٤).

﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

فالحرب الدائمة لم تكن مثابة العلاقة الطبيعية أو الوحيدة القائمة بين المسلمين وغيرهم. ففي غير أوقاتها كانت تقوم علاقات ودية بالوسائل الدبلوماسية بين الدولة الإسلامية وبين الأمم والشعوب المحيطة بها.

﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ (الأنفال:٦١).

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ (البقرة:٢٥٦).

والرسول -صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- يتخذ الحكمة وهي أولى مقومات السفير أسلوبًا لتبليغ رسالته ويجعل منها منهاجًا لمعاملاته مع الناس جميعًا. ويتجلى ذلك فيما سطر من كتبٍ وما أوفد من بعوث إلى القبائل العربية وإلى ملوك الدول المتاخمة للجزيرة ورؤسائها، وفيما نظمه من مؤتمرات واجتماعات، وما عقده من معاهدات للمحالفة أو ا لهدنة وفداء الأسرى أو تبادل المعونة وتحقيق المصالح المشتركة في غير ذلك من الأغراض.

ومن ذلك يتبين أن السفارات العربية في عصر الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ تغاير – مضمونًا وأهدافًا – السفارات التي أوفدها العرب قبل الإسلام؛ إذ كانت سفارات العرب في جاهليتهم – كما تقدم – تتّسم بالبساطة التي تتناسب مع ظروفهم

الاقتصادية والاجتماعية وتستهدف أساسًا إنشاء الروابط التجارية بين القبائل العربية بعضها وبعض من جانب وبينها وبين الدول المجاورة من جانب آخر. أما السفارات الإسلامية على عهد رسول الله ﷺ فكان الغرض الأول الذي تستهدفه هو الدعوة إلى الإسلام ونشر رسالته.

وهكذا تطورت نظم السفارات – في ظل الإسلام – لتفي بهذه الحاجة الجديدة ودخلت في مرحلة أكثر تقدمًا في أسلوبها ومحتواها ونعنى بها السفارات الإسلامية في نشأتها الأولى. وتختلف حلقات هذه المرحلة بحسب ظروف الدعوة وأغراضها وتطورها المرتقب في المستقبل. فقد كانت العلاقات الخارجية التي أقامها الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قاصرةً في بداية الأمر على المحادثات الشخصية وإرسال الكتب وإيفاد البعثات إلى القبائل العربية للتعريف بالدين والحث على الدخول فيه. ومن أجل هذا الغرض كانت سفارات الصحابة إلى مختلف القبائل، وكانت المؤتمرات التي عقدت في الجزيرة العربية لشرح مبادئ الإسلام والإقناع بها. وكانت المواثيق التي عقدها رسول الله ﷺ مع الأوس والخزرج.

وهكذا تعددت وسائل الاتصال في عهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة من محادثات شخصية ومراسلات إلى سفارات ومؤتمرات وعقد معاهدات حسبما كانت تتطلب الظروف. واستهدفت هذه الوسائل الدبلوماسية جميعها غايةً واحدةً هي الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولما كانت الهجرة إلى المدينة وأثمرت الدعوة وتحققت للعرب – لأول مرة – وحدتهم السياسية، فقامت أول دولة في المدينة برئاسة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أصبح انتهاج أسلوب السفارات إحدى ضرورات جوهرية لدعم أركان الدولة الناشئة، فاتسع نطاقها وتعددت وسائلها وأغراضها وتوطدت أركانها ودعائمها. فلم تعد علاقات المسلمين بجيرانهم قاصرةً على التبادل التجاري؛ بل امتدت إلى مختلف النواحي الأخرى لشدة حاجة الدولة الجديدة إلى الاتصال بالدول المجاورة في سبيل تنفيذ السياسة الخارجية الإسلامية عن طريق إيفاد ا لسفارات وإرسال الكتب إلى ملوك الدول المجاورة ورؤسائها.

وظل نشر الدعوة وتوسيع نطاقها الهدف الأساسي للسفارات الإسلامية، فاستخدمت جميع

الأسـاليب لتحقيـق هـذه الغايـة النبيلـة. بيـد أن الحروب التي خاضها المسلمون على عهد رسول الله بعد أن هاجر إلى المدينة كان من شأنها توسيع أغراض السفارات، فعقدت المعاهدات مع ممثلي الأمصار والمدن المفتوحة لتنظيم الهدنة أو السلم وما يقتضيه ذلك من وقف القتال وتبادل الأسرى. ذلك أن الدولة الإسلامية قد استغرقت معظم حياتها في عهده ﷺ في الحروب الوقائية دفاعًا عن رسالة الحق. وقد غزا الرسول ﷺ بنفسه سبعًا وعشرين غزوةً، وكانت بعوثه وسراياه ثمانيةً وثلاثين ما بين بعث وسرية. فكان تبادل السفارات يكاد يقتصر على عقد الهدنة ودفع الجزية وما إلى ذلك من الأغراض السياسية والعسكرية، وكان ذلك أمرًا طبيعيًّا بالنظر إلى أن من طبيعة ا لدولة في نشأتها أن تقضي معظم سني حكمها في إرساء كيانها والدفاع عنه ضد القوى المعادية.

وكان عهد الخلفاء الراشدين امتدادًا لعهد النبي الكريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فالدولة الإسلامية منصرفةً إلى توطيد أركانها ومد سلطانها في أرجاء الأرض، فهي تخرج من فتح إلى فتح. ولا تزال مقاصد السفارات لديها تتركز في بث الدعوة إلى الإسلام وإعلان الحرب دفاعًا عن حماه والتمكين له بعقد المعاهدات. وهكذا كان العمل الدبلوماسي وسيلةً لتوطيد أركان الدولة بالإفادة من الأسلوب الودي كبديل للحرب أو مساعد لها في تنفيذ الخطط السياسية، الأمر الذي كان ينبع من طبيعة العقيدة الإسلامية.

ثانيًا: في عصر الدولة الأموية:

ثم قامت دولة الأمويين التي اتخذت دمشقَ حاضرةً للخلافة. ولم تختلف السفارات الدولية كثيرًا في ذلك العهد من حيث طبيعتها وأغراضها عما كانت عليه في عهد الخلفاء ا لراشدين؛ إذ ظل هدفها الرئيسي هو تأييد الفتوحات الإسلامية في سبيل نشر رسالة الإسلام والتمكين له – دينًا ودولةً – بالأقطار والمدائن التي لم يكن قد وصل إليها بعد، فلم يحدث من هذه الوجهة تطوُّرٌ كبيرٌ في مجال السفارات الدبلوماسية، وإنما كان التطور قاصرًا على التقدم الفني متمثلًا في أسلوب تلك السفارات وطابعها وتنظيمها وتشعب ميادينها انعكاسًا لقوة الدولة الأموية وبداية العصر العلمي والأخذ بأسباب الحضارة بعد الانفتاح على حضارات البلاد المفتوحة. وكان استمرار الحروب بين الدولة الإسلامية ودولة الروم لا يسمح بأكثر من تبادل

السفارات لعقد معاهدات الهدنة أو تنظيم فقرات السلم ودفع الجزية.

ومن ثم لم يدخل الخلفاء الأمويون في علاقات وطيدة مع الروم، ولم يسعوا بطبيعة الحال إلى عقد أواصر الصداقة والتعاون معهم إلا حينما كانت تضطرهم الظروف الداخلية إلى ذلك. فكانت العلاقات السياسية الودية بين الدولتين قاصرةً على الفترات التي شعر فيها الأمويون بالرغبة في إقامة هذه العلاقات لاحتياجهم إلى الاستقرار أو إلى قدر من الهدوء الخارجي لمواجهة الثورات ا لمعادية لهم في الداخل. وقد عمد خلفاء بني أمية إلى عقد معاهدات الصلح والسلم مع الدولة البيزنطية في أواخر القرن السابع الميلادي حتى يأمنوا الجبهة الخارجية ويتفرغوا للقضاء على الفتن التي نشبت في البلاد على إثر الانقسام والفرقة التي دبت في صفوف المسلمين فحولتهم إلى أمويين وعلويين وشيعة. أما في غير هذه الفترة – وهي قليلة نسبيًّا – فقد كانت المعارك الحربية مستمرةً بين الجانبين.

وإزاء هذه الظروف السياسية والعسكرية ظلت السفارات السياسية الودية محدودةً في العصر الأموي حتى في الفترات التي ساد فيها السلام بين الدولة الإسلامية ودولة الروم، فقد كانت تلك الفترات – فضلًا عن قلتها – لا تمثل سلامًا دائمًا يسمح بقيام تلك السفارات وإنما هي فترات سلام مسلح أو صلح مؤقت.

وثمة عامل آخر حال دون ازدهار التبادل الدبلوماسي في المجال السياسي والمجال الاقتصادي والمجال الثقافي وغير ذلك من مجالات السلام، وهو أن النهضة في تلك الميادين لم تعد طور البداية خلال تلك الحقبة، إذ كانت الفتن التي أشرنا إليها والتي تمخضت عن الخلاف الذي نشأ في أواخر عهد عثمان واستمر في عهد علي رضي الله عنهما تستأثر معظم جهود الدولة التي بذلت في حصرها والقضاء عليها. والسفارات الدولية في المجال السلمي وليدة عاملين لابد من توافرهما:

الأول: استقرار الدولة ورخاء المجتمع وما يسفران عنه من تقدم ونهضة في العلم والتجارة وغيرهما.

والثاني: قيام العلاقات الودية في الميدان الدولي وماتؤدي إليه من تفاهم وتعاون في سبيل قضاء المصالح المشتركة، وهي علاقات تتوقف إلى حد كبير على التوازن الدولي. ولا ريب أن السلم هو

البيئة الصالحة لتدعيم الروابط الدولية من طريق تبادل السفارات.

ثالثا: في عصر الدولة العباسية:

ولما انتهى العصر الأموي وأعقبه عصر بني العباس، تطورت السفارات الإسلامية تطورا على جانب كبير من الأهمية، ويرجع ذلك إلى اشتداد ساعد الدولة الإسلامية حتى أصبحت في طليعة القوى السياسية والدولية؛ بل غدت إحدى القوتين السياسيتين الكبريين في العالم: قوة المسلمين، وقوة البيزنطيين. وقد امتدت رقعتها من أطراف الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، فضلا عن اتساع أرجائها شمالا وجنوبا. فكان لذلك أثره البالغ في السفارات المتبادلة بين دولة العباسيين وإمبراطورية الروم المسيحية – الإمبراطورية البيزنطية – التي كانت تبسط ظلها على آسيا الصغرى وبلاد البلقان وإيطاليا. فازدادت تلك السفارات باتساع نطاق العلاقات الدولية بين الجانبين وتعددت أغراضها ووظائفها بحيث أصبح تبادل السفراء أو الممثلين السياسيين وسيلة لتوثيق العلاقات التجارية وتبادل الأسرى، أو تبادل العطايا، وفض المنازعات وعقد المعاهدات، وغير ذلك من الأغراض السياسية والعسكرية، كما استحدث غرض آخر للسفارات وهو تعزيز الروابط العلمية والثقافية بين الدول لما يحدثه ذلك من إقرار علاقات المودة والسلام بينها دعم الحركة الثقافية في البلاد.

ومن هذا يتبين أن الحرب لم تكن هي العلاقة الوحيدة بين العباسيين والبيزنطيين؛ بل نشأت بينهما في كثير من الأوقات علاقات مودة وسلام وفقًا لمصالحهما التجارية ولمقتضيات التوازن الدولي.

ويرجع ذلك إلى أن سياسة الفتوح في عصر العباسيين لم تستمر كما كانت عليه الحال في عصر الخلفاء ا لراشدين والأمويين. فلم تزد رقعة الدولة الإسلامية؛ بل بدأت الحركات الانفصالية تعتريها في أواخر هذا العهد، فكانت في حاجة إلى الحفاظ على سلامة أرجائها أكثر منها إلى الاستمرار في الفتح. ومن ثم كان أكثر حروب العباسيين ضد البيزنطيين وغيرهم دفاعًا عن دولتهم في المقام الأول. وكانت تلك الحروب هي الجانب السلبي للعلاقات السياسية. أما في الجانب الآخر فقد اهتم العباسيون أكثر من الأمويين بتوسيع دائرة علاقاتهم الخارجية السلمية. فسارت السفارات بينهم وبين القسطنطينية وروما ومملكة البلغار ودولة الفرنجة

والهند والصين. وعقدت بيزنطة مع بغداد معاهدات الـصلح وتبـادل الأسرى في عهـد هـارون الرشـيد والمـأمون والمعتـصم، وتبادلـت معهـا الـسفارات في مختلـف الأغـراض. وكـان دعـم الـروابط العلميـة والثقافية من أهم ما استهدفته السفارات الإسلامية من أجل توثيق علاقاتها مع جاراتها مما يشبه المهمة التـي يقـوم بهـا المستـشارون الثقـافيون في سـفارات الدول الحديثة اليوم.

وهكذا اقترن عصر استقرار الدولة الإسلامية وازدهارها واتساع نفوذها وترامي أطرافها بازدهار الـسفارات الثقافيـة بينهـا وبـين الدولـة البيزنطيـة. فتبادل الجانبان الكتب أو الرسائل التي كانت تصاغ في أساليب وديـة، ثـم دخـلا في مفاوضـات أسـفرت عـن معاهـدات لإقرار التبـادل الثقافي. وكانـت تلـك المعاهـدات تـنص عـلى دراسـة الكتـب النـادرة التـي تتـوافر لـدى الجـانبين أو في مكتبـاتهما العامـة، وتبـادل البعثات العلمية، وتيسير مهام الطلاب الباحثين في جامعات المسلمين والبيزنطيين وفي عواصمهم.

رابعا: في عصر الأمويين بالأندلس:

وفي عهـد الأمـويين بالأنـدلس – حيـث أسـس عبد الرحمن الداخل أحد أبناء البيت الأموي الذي تداعى أمام قوة العباسيين إمارة مستقلة سنة ٧٥١م – خطـت الـسفارات الإسـلامية أشـواطا بعيـدة في مجال التطور والتقدم. ذلك أنه كانت ثمة أربع قوى سياسية كبرى: الدولة العباسية في المشرق وعاصمتها بغـداد، ودولـة الـروم في القـسطنطينية، والدولـة الأمويـة في الأنـدلس وعاصـمتها قرطبـة، ودولـة الفرنجة في بـلاد الغـال (فرنسا)، وقـد قامـت في زمـن معـاصر لقيـام دولـة الأمـويين بالأنـدلس، واتخـذت (اكس لا شـابل) عاصـمة لهـا، وحـاول إمبراطورهـا شرلمـان أن يعيـد مجـد رومـا القـديم وينـافس الدولـة الرومانية الشرقية التي تأسست في بيزنطة وتزعمت العالم المسيحي. وأصبحت دولـة الفرنجة في عـصر هـذا الإمبراطـور أعظـم قـوة في أوربـا الغربيـة، واستطاعت بتحالفها مع البابوية في روما أن تحد من نفوذ الدولة البيزنطية، وتطلعت إلى مد سلطانها إلى شرق أوربا وبسط حمايتها على المسيحيين هناك.

وفي ظـل هـذه الظـروف لعبـت سياسـة تـوازن القوى دورها في العلاقات السياسية بين هذه الدول الأربـع المتنافسة، إذ كـان ثمـة تنـافس بين العباسيين والـروم الـشرقيين، ثـم جـد تنـافس آخـر بـين بنـي العباس في المشرق وبني أمية في المغرب من جانب،

وبين البيزنطيين في شرقي أوربا والفرنجة في غربها من جانب آخر.

وقد أحدث التغيير الذي طرأ على التوازن الدولي في تلك الحقبة أثره في العلاقات القائمة بين تلك القوى السياسية المتنازعة، ونشأ عن ذلك تطور كبير في السفارات. فلم تعد الحرب هي السبيل الوحيدة لتنفيذ السياسة الخارجية للدولة وحل مشكلاتها وتحقيق أهدافها في التوسع والسلطان، وأصبح حد السيف لا يكفي – إزاء تلك القوى الدولية الكبيرة – لفض المنازعات بينها. فلم يكن بد من استخدام الدبلوماسية كإحدى الأصول التي يتعلمها رجال الدولة وينتهجون على أساسها في إقرار علاقاتهم مع الأمم الأخرى. وأصبحت الدبلوماسية نظاما مدروسا تسير عليه الدولة في علاقاتها الخارجية.

لقد كانت حاجة الروم إلى العرب ماسة ومستمرة، وكانوا ضعفاء أمامهم منذ وحدة العرب أيام الخلافة الإسلامية. فلا غرو أن تغدو هذه الحاجة أشد بعد الانشقاق الذي دب في صفوف المسيحيين وقيام دولة الفرنجة ومنافستها للإمبراطورية البيزنطية، هذا فضلا عن ظهور الأمم البربرية المستقلة على حدود الرومان، وأن يؤدي هذا إلى أن تلجأ تلك الإمبراطورية إلى التفاهم مع جيرانها العرب، وأن تسعى إلى محالفتهم لمقاومة أعدائها وتأمين جبهتها الداخلية كما يتجلى ذلك في مفاوضاتها مع هارون الرشيد والمأمون والمعتصم. وقد انعكس هذا التطور الدبلوماسي على السفارات بمختلف أغراضها ولا سيما الثقافية منها فتواتر سير السفارات الإسلامية من بغداد إلى عاصمة الرومان.

ولما نافست دولة عبد الرحمن الداخل في الأندلس سلطان الخلفاء العباسيين في بغداد، اتجهت الخلافة العباسية إلى دولة الفرنجة القائمة على حدود الأندلس تنشد محالفتها ضد الأمويين، واستعانت في سبيل دعم أواصر المودة والصداقة بينهما بالتبادل الدبلوماسي، فسيرت السفارات فيما بين بغداد وعاصمة الفرنجة. وقد تعددت الوفود بين الخليفة العباسي أي جعفر المنصور وبين سيد الفرنجة، وبين هارون الرشيد وشارلمان.

ولم تحقق الدولة البيزنطية مآربها في محالفة العباسيين ضد الفرنجة؛ إذ كان هؤلاء – كما أسلفنا – يسعون للتحالف مع دولة الفرنجه ضد بني أمية في الأندلس. وقد حاول شرلمان مهاجمة دولة الأمويين ولكنه لم ينجح، فكان من الطبيعي أن يقيم

البيزنطيون علاقات دبلوماسية مع دولة الأندلس، وبلغت تلك العلاقات أوجها في عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع والخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر. وسارت السفارات بين القسطنطينية وقرطبة مثلما سارت بينها وبين بغداد. وكان للسفراء المسلمين في القسطنطينية مكان الصدارة بين الممثلين الدبلوماسيين، ولسفراء العباسيين الأسبقية في ا لترتيب على سفراء الأمويين.

وقد أدى التوازن الدولي – كما تقدم – إلى قيام السفارات الإسلامية من قرطبة إلى العواصم الأوروبية بقصد توثيق الروابط السياسية والعلمية والاجتماعية بين الدولة الأموية في الأندلس ودولتي المسيحية في القسطنطينية وإكس لا شابل، ثم بينها وبين جماعة النورمان في الجزر البريطانية التي بدأت تظهر كقوة سياسية جديدة في ذلك الحين.

وقد بلغ التبادل الثقافي ذروته في ذلك العهد بفضل النهضة العلمية التي ازدهرت في العواصم الإسلامية والمسيحية، فقد كانت بغداد وقرطبة والقسطنطينية مراكز إشعاع للعلوم والفنون والآداب، تنافس كل منها الأخرى في التزود بالعلم والثقافة، والبحث عن كل جديد ومبتكر من المعارف والأفكار، وتشجيع العلماء والطلاب على البحث والدراسة، ولقد لعبت تلك السفارات دورا هاما في إقرار السلام بين تلك القوى الكبيرة التي كانت تحتل مسرح السياسة الدولية حينئذ.

وموجز القول في تاريخ السفارات في الإسلام أن العرب لما تحضروا في ظل شريعة التوحيد والحق والحرية وأخذوا بأسباب المدنية بعد رسوخ قدمهم في مملكتهم الواسعة الأطراف وكثرت علاقاتهم بالدول والممالك المعاصرة لهم، ازدهرت السفارات في عهدهم، فكانوا يرسلون ممثليهم – وعلى الأخص في عهد العباسيين الأول والثاني – إلى الملوك والأمراء، ليس في أحوال الصلح فقط؛ بل كذلك في المفاوضات السياسية والودية وحوادث المصاهرة. ولم تقتصر السفارات على الخلفاء والأمراء المسلمين بعضهم وبعض؛ بل شملت علاقاتهم التجارية والسياسية والثقافية مع رؤساء الدول الأجنبية. فجرت السفارات الإسلامية بين العباسيين وملوك ا لشرق في الهند والصين، كما جرت بين ملوك أوربا وملوك الإسلام في الشرق والأندلس. والتاريخ حافل بأخبار السفارات التي كانت لا تنقطع بين الخلفاء المسلمين في الأندلس وبين ملوك الإفرنج.

لابد من تدارك الأمر

بقلم: **الأستاذ مصطفى مشهور**

لقد طغت المادية على حياة مجتمعاتنا في الوقت الذي انحسرت الربانية إلى حد كبير وذلك نتيجة تلك الموجة الطاغية من مدنية المادة وحضارة المتع والشهوات التي غزت بلادنا مع احتلال الأعداء العسكري لأوطاننا.

لقد طغى ظلام المادة في حياتنا على نور الحق وسمو الروح، لقد سادت المقاييس والموازين المادية على المقاييس الربانية، لقد استحوذت الدنيا بمتعها التافهة الزائلة على اهتمام الكثير من الناس وصارت أكبر همهم ومبلغ علمهم، وشغلوا بها عن الحياة الآخرة الدائمة ونعيمها. لقد هبطت أخلاق الكثيرين حتى صارت أقرب للبهيمية منها إلى الإنسانية. فحلت الأنانية محل الإيثار، والتنازع والاقتتال محل الحب والوئام.

لقد كثرت جرائم القتل والسرقة والاغتصاب وغيرها وبصورة غريبة وشاذة توحي أن مرتكبي هذه الجرائم لم يعد عندهم وازع من ضمير أو رادع من خوف الله. وقد أدى الضياع النفسي والتجرد من الوازع الديني إلى انتشار المخدرات والخمر وحتى صار ذلك من أكبر الأخطار المحدقة على أمتنا وشبابها.

لقد عمت الغفلة الغالبية العظمى من أفراد مجتمعاتنا، فقد غفلوا عن أن هناك إلها عظيما خلقهم ومطلع عليهم، غفلوا عن ذكره وعن طاعته، غفلوا عن فضله ونعمه عليهم، غفلوا عن قدرته وسلطانه عليهم؛ بل غفلوا عن سر وجودهم في هذه الحياة وعن رسالتهم فيها، كما غفلوا عن مصيرهم الحتمي الذي هم سائرون إليه لا محالة، وعما سيلقونه من حساب وجزاء نرى الكثيرين وكأنهم عطلت عقولهم وعميت أبصارهم وصمت آذانهم فصاروا كالأنعام؛ بل هم أضل أولئك هم الغافلون.

صور الإفساد والتدمير

هذا هو الواقع الذي نراه ونلمسه في مجتمعاتنا نتيجة التخطيط الذي رسمه أعداء الإسلام لأمتنا

كي يفرغوا الإسلام من قلوبنا وحياتنا بعد أن يئسوا من تركنا لهذا الدين. لقد أبعدوا الكثير منا عن الإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والخلق الإسلامي الرفيع، وأتاحوا المناخ المناسب لإشباع الشهوات ونشر الفساد والانحلال والخمر والميسر والنساء إلى غير ذلك من صور الإفساد والتدمير للفرد والأسرة والمجتمع.

ثم ماذا بعد هذا؟ أما آن للعقلاء والمفكرين المخلصين من أبناء هذه الأمة أن يهبوا معنا لتدارك الأمر وإنقاذ أمتنا من الانزلاق إلى الهاوية؟

إنهامسؤولية وأمانة، وإن التخلي عن ذلك جريمة وخيانة. لا ننكر أن هناك من يفكرون في الإصلاح ولكن الكثيرين منهم يخطئون الطريق، ويغفلون عن أصل الداء وبالتالي لا يهتدون إلى الدواء الشافي. كما أنهم يغفلون عن سنة الله في خلقه وهي أن التغيير يبدأ في النفوس أولا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد:١١). لقد تغيرت النفوس من الربانية والسمو الروحي إلى المادية والهبوط إلى الحيوانية، فكانت النتيجة الوصول إلى الحال الذي ذكرناه. فالعلاج إذًا يبدأ من النفوس بأن تأخذ الربانية مكانتها في نفوسنا وتقلل من سطوة المادة وتسلطها.

إن الله سبحانه وتعالى الذي خلقنا ويعلم عنا كل شيء ارتضى لنا الإسلام دينا، هذا الدين الحق الذي يحقق التوازن ا لحكيم بين الربانية والمادية في حياتنا، بين مطالب الجسد ومطالب الروح، بين حياتنا الدنيا وحياتنا الآخرة.

صلاح الأمة

فإلى العلاج الناجع أيها الناس، إلى الدواء الشافي من كل داء، إلى هذا الدين من جديد إلى كتاب الله وسنة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:٨٢). وصدق رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي».

نريد أن تأخذ الربانية مكانتها وحيزها الصحيح في نفوسنا ونتخلص من جحيم المادية ونتحرر من قيودها، ونتخلص من رواسبها ومخلفاتها. هذه هي البداية الصحيحة للتغيير ولبناء مجتمعاتنا وأوطاننا على أساس سليم ومتين.

ولعله من المفيد النافع أن نعيش معا قضية

العلاقـة بـين الماديـة والربانيـة بـشيء مـن العمـق والتفصيل لكي نكون على بصيرة، ونحن نحدث هذا التغيير الجذري في نفوسنا ثم في مجتمعنا ووطننا.

لقد خلق الله أبانا آدم عليه السلام من طين ثم نفخ فيه من روحه، فالمادية يمثلها الطين والجانب الروحي أو الربانية تمثلها تلك النفحة من روح الله. فالمادية تجذب الإنسان لتهبط به إلى الأرض أصل الطين، والربانية ترتفع بالإنسان لتسمو به إلى خالقها الأصل الذي منه نفحة الروح. وهكذا يحيا الإنسان بين شد وجذب بين مطالب الجسد وشهواته وبين غذاء الروح وسموها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ (الشمس:٧-١٠). ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان:٢-٣).

هـذا هـو مجـال الابـتلاء والامتحـان والإرادة والاختيـار، ومجـال المجاهـدة والثـواب والعقـاب: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ (الملك:٢). ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف:٧).

ويبعـث الله الرسـل وينـزل الكتـب لهدايـة الإنـسان والـسمو بـه روحيـا، وفي المقابـل يقـوم الشيطان بغوايته ليهبط به إلى أسفل سافلين.

يخرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئا، وقد جعل الله له العقل والسمع والبصر كوسائل معرفة ينظر ويسمع ويتكلم وليتعرف على هذه الدنيا التي وجد فيها وليتعرف على سر وجوده ورسالته في هذه الحياة ودوره فيها، كما يفكر فيما بعد هذه الحياة الدنيا وما ينتظره هناك: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:٧٨). ولم يتركنا الله لعقولنا فقط كي ندرك بها سر هذا الكون وسر وجودنا، وكل ما يتصل بهذا الوجود، والسبيل الذي نسلكه في حياتنا؛ ولكن الله أرسل لنا الرسل وأنزل الكتب لتبصيرنا وهدايتنا إلى الصراط المستقيم، ولمعرفة الخير من الشر والنافع من الضار والحق من الضلال، فالعقل وحده يمكن أن يضل بصاحبه لأنه عاجز قاصر، فلابد له من نور الوحي الذي يضيء له الطريق. فكما أن العين لابد

لها من ضوء لكي تبصر الأشياء، فكذلك العقل لابد له من نور الوحي الذي يرشده: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (الحديد:٢٨). ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ (الأنعام: ١٢٢).

وكل مولود تولد معه غرائزه البدنية كما تولد معه فطرة الإيمان والعبودية لله. وهكذا تولد معه المادية والربانية، ولابد من إحداث التوازن الحكيم بين الربانية والمادية في حياة الإنسان؛ لأن في طغيان إحداهما على الأخرى يكون الشقاء والحيرة. ولن يقدر على تحديد هذا التوازن الحكيم إلا خالق الإنسان الذي يعرفه حق المعرفة، ويعلم ما ينفعه وما يضره وما يصلحه وما يفسده: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤). والله سبحانه يجمع مع هذا العلم المحيط بكل شؤون الإنسان أنه رؤوف ورحيم بالإنسان ويحب له الخير، فاقتضى ذلك أن يرسل الله الرسل وينزل الكتب بالهداية والنور للناس ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ (النساء:١٧٤).

فإذا أعرض الناس عن نور الوحي الذي يهديهم إلى الصراط المستقيم، واعتمدوا على عقولهم ضلوا الطريق، وطغت المادية على حياتهم، وانحسرت الربانية أو تلاشت من نفوسهم، وتمكن الشيطان من إضلالهم وإغوائهم. وتظهر صور شتى لهذا الضلال مثل إنكار وجود الله أو عبادة غير الله من حجر أو شجر أو شمس أو كوكب أو غير ذلك من المخلوقات التي لا تضر ولا تنفع. كما تجد من يدعى الألوهية، ويجد من يصدقونه ويعبدونه من دون الله إلى غير ذلك من صور الضلال والانحراف، فيرسل الله لهم الرسل وينزل الكتب ليخرجوهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

فالسعيد من استضاء بنور الهداية وسار في الطريق المستقيم وجاهد نفسه وألزمها ماجاء به الدين الحنيف من مبادئ وقيم ومثل وأخلاق وواجبات، والشقي من حرم تلك الهداية وأغواه الشيطان وأعوانه وتنكب طريق الحق.

﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ (الإسراء:١٥).

رسول الله بين منصفيه وخصومه الغربيين

بقلم: الأستاذ أنور الجندي

كانت شخصية رسولنا محمد (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وما تزال وستظل موضع اهتمام الباحثين والمفكرين والفلاسفة في غير بيئات المسلمين الفكرية.

فقد كان ظهور رسول الإسلام حدثا ضخما في تأريخ الإنسانية، لا سبيل إلى تجاهل أثره وفعاليته، ومرد هذا في الأغلب يرجع إلى أمرين كبيرين.

الأول: - خلق محمد (ﷺ) وطريقته في تصريف الأمور على نحو رائع، فيه ما يناقض القيم الغربية والمفاهيم البشرية التي طالما أثارت الحروب من أجل أمور أغضى عنها الرسول عفوًا منه وسماحة؛ بل ربما قدم لخصومه الذين آذوه مزيدًا من التسامح والعطاء. ثم حياته البسيطة في مظهرها مع شخصيته ذات النفوذ الغلاب.

الثاني: الدعوة التي حملها إلى البشرية، والتي لم تكن دينا فحسب؛ بل تشريعًا ربانيا ومجتمعًا وحضارة وفكرا له قيمه ومفاهيمه وأسسه ذات الطابع الإيجابي، الجامع بين الروح والمادة، والضمير والعقل المفتوح على آفاق الإنسانية، يأخذ منها ويعطي..

ولقد انقسم هؤلاء الكتاب الذين أولوا شخصية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اهتمامهم، بين الإنصاف والجحود، وظل موقفهم يتأرجح بين الإعجاب والتقدير، وبين الخصومة والتعصب. وربما عابوا ما جاء به، ولم يعيبوه، وربما حملوا عليه مرة، وأعجبوا به أخرى، مترددين دون قول الحق، ما عدا قلة قليلة هي التي أولت شخصيته مزيدًا من التقدير والإعجاب الخالص.

بل لعل الأمر كان أبعد مدى من ذلك، فإن كتابا من الغرب عرفوا وجه الحقيقة، قد عارضوا كتابا أيضًا من الغرب ظلموا شخصية النبي، فإن حملات «مرجليوث» والقس كانون سل، والأب لامنس الذي أفرد كتابا خاصا عنوانه «هل كان محمد صادقا» استغل فيه ما أمكن استغلاله من الشبهات المختلفة التي وردت في كتب الشعوبية، كل هؤلاء قد جاء من بعدهم من نقض ما ذهبوا إليه».

شهاب أضاء العالم

١- يقول كارليل: لسنا نعد محمدًا هذا قط رجلًا كاذبًا متصنعًا يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغيه، أو يطمع إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر، وما الرسالة التي أداها إلا حق صراح، وما كلمته إلا صوت صادر من العالم المجهول، كلا، ما محمد بالكاذب ولا الملفق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع.

ويزعم المتعصبون أن محمدًا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان. كلا وأيم الله، لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات، المتوقد المقلتين، العظيم النفس، المملوء رحمةً وخيرًا وحنانًا وبرًا وحكمةً وحجى ونهى، غير المطمع الدنيوي ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه. كيف وتلك نفس صامتة كبيرة، ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين، فبينما نرى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة، إذ ترى محمدًا لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب، ويتوشح بمتبع الأباطيل، لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور..».

أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق

٢- ويصور «وليم موير» أسلوب محمد وبيانه فيقول: امتاز محمد بوضوح كلامه ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يعهد التأريخ مصلحا أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد.

٣- وعني «دوزي» في بعض فصوله من كتاب «ملوك الطوائف» بالرد على ما ردده خصوم الإسلام فقال في ص (٤٠٥): لو صح ما قاله القساوسة من أن محمدا نبي منافق كذاب فكيف نعلل انتصاره؟ وما بال فتوحات أتباعه تترى، وتتلو إحداها الأخرى؟ وما بال انتصارتهم على الشعوب لا تقف عند حد، وكيف لا يدل ذلك على معجزة هذا الرسول؟ لقد كانوا يعتقدون أول أمرهم أن خذلان المسلمين سيتم بمعجزة قريبة، فقد طالما سمعوا عن معجزات الكنيسة، وانتظروا هذه المعجزة التي تخلص البلاد المسيحية من غزوات المسلمين، ولكن انتظارهم هذه المعجزة قد طال وذهب أدراج الرياح، وأعجب من ذلك أن معجزة أعظم قد حدثت، وكانت معجزة أعظم مما كان يتوهمه القديسون أنفسهم، وأي معجزة أعظم وأروع من أن ترى شعبا كان إلى زمن قليل في

غاية من الخمول، ثم ظهر إلى الدنيا فجأة وظل يتقدم بسرعة لا مثيل لها.

رؤوف رحيم

٤- أما المؤرخ «سيديو» فقد حاول الرد على اتهام النبي بالقسوة أو الجبن مما جاء في كتابات خصوم الإسلام فقال: من التجني على حقائق التأريخ ما كان من عزو بعض الكتاب إلى محمد القسوة والجبن، فقد نسي هؤلاء أن محمدا لم يأل جهدًا في إلغاء عادة الثأر الموروثة الكريهة... وكأن أولئك الكتاب لم يقرؤوا آيات القرآن التي قضى محمد فيها على عادة الوأد الفظيعة، وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على أعدائه بعد فتح مكة، ولا في الرحمة التي حبا بها كثيرًا من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة، ولا إلى ما أبداه من أسف على بعض الأحكام المبتسرة، وكأنهم لم يعلموا أن محمدًا لم يسئ استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم، قضاء لشهوة القسوة الدنيئة، وأنه لم يأل جهدًا في الغالب – في تقويم من يجور من أصحابه، وكل يعلم أنه رفض بعد غزوة بدر رأي عمر ابن الخطاب – في قتل الأسرى، وأنه عندما حل وقت مجازاة بني قريظة، ترك الحكم في مصيرهم لحليفهم القديم سعد بن معاذ. وأنه صفح عن قاتل عمه حمزة، وأنه لم يرفض قط ما طلب إليه من اللطاف والسماح، وليس بمجهول أن خالد بن الوليد – الذي كان من أشجع قواده لم يستطع أن يرعوي بعد إسلامه – من روح القسوة والصولة التي كانت تلازمه في زمن الجاهلية، فلاحت له الفرصة بأن يثأر لقريبه القتيل فأثخن في بني خزيمة، فأجمع المسلمون على استفظاع عمله، فلما نبئ محمد بما صنع خالد، أسرع في ذمه جهارًا فرفع يديه إلى السماء قائلًا: «اللّٰهم اني أبرأ إليك مما صنع خالد...»

منقذ الإنسانية

٥- ولقد وجد «برناردشو» في شخصية النبي ما دعاه لأن يصفه بمنقذ الإنسانية «لقد عمد رجال الإكليروس في العصور الوسطى إلى تصوير الإسلام في أحلك الألوان، وذلك بسبب الجهل أو بسبب التعصب الذميم، والواقع أنهم كانوا يسرفون في كراهية محمد وكراهية دينه، ويعدونه خصما للمسيح، أما أنا فأرى واجبا أن يدعى محمد منقذ الإنسانية، وأعتقد أن رجلا مثله إذا تولى زعامة العالم الحديث نجح في حل مشكلاته، وأحل في العالم السلام والسعادة، وما أشد حاجة العالم اليوم إليهما..».

٦- وقد أعلم أميل درمنجم «في كتابه حياة

محمد» أنه لا يوجد واحد في الدنيا أمكنه أن ينكر وجود محمد، ولكن وجد من ينكرون بعض ما جاء في ترجمة محمد في الكتب العربية، وكم يكون مؤثرا ومفيدا التلاقي مع رجل من الرجال الذين يقتدي بهم جانب عظيم من الإنسانية، أما من الجهة الأوروبية فقد كانت الأوهام والعداوات الدنيئة تحول دون درس حقيقي علمي لعظمة منشئ الإسلام.

ويضيف «جون سيمون» أن محمدا قد رفع أعلام التمدن. أما الدكتور «ماردوس» المستشرق الفرنسي فيرى أن أكثر الكتاب ارتيابًا وشكًا قد خضعوا لسلطان تأثير محمد.

أما «جوته» فعنده أن أهل أوروبا لم يصلوا بعد إلى ما وصل إليه محمد فيقول: «إننا – أي أهل أوروبا – بجميع مناهجنا لم نصل إلى أبعد مما وصل إليه محمد، وسوف لا يتقدم عليه أحد..».

٧- أما الدكتورة لورا فينشا فاليري الكاتبة الإيطالية فتدافع عن النبي بحماس وإيمان وصدق، فتقول: «قام أعداء الإسلام الألداء الذين أعماهم الحقد والتعصب، واتهموا رسول الله، ذلك الرجل النبيل، الذي كان ينظر إليه قبل الرسالة نظرة إكبار وإجلال من جميع مواطنيه، لما تحلى به من الأمانة والسجايا الكريمة، وكانت هذه التهمة التي رموه بها لا يقبلها عقل، ولا يمكن أن يسلم بها عاقل، فضلًا عن أنها لا تقوم على أي أساس، وهي تهمة الغش والخداع، وليت شعري كيف أن هؤلاء الناس لم يسألوا أنفسهم: إذا كان النبي في الحقيقة كاذبا فكيف اجترأ على أن يوجه في القرآن إلى الكذابين والمخادعين أشد عبارات الذم وأقساها، وكيف توعدهم بالنار وسوء العذاب، وإذا كان كاذبا في دعوته كما يفترون، فكيف صمد للمقاومة أكثر من عشر سنين وهو في مكة احتمل أثناءها الشيء الكثير من صنوف الاضطهاد والآلام، وهو ذلك الرجل الوديع الهادئ الطباع، وكيف تهيأ له أن ينجاز إليه طواعية واختيارًا؛ بل وبمنتهى التحمس جماعات كبيرة من رجالات قريش ونبلائهم، وأن ينضووا تحت لوائه مع غيرهم من السوقة والعبيد.

أما تهمة القسوة التي يوجهونها إليه فمن السهل دفعها؛ لأن محمدا الذي كان على رأس حكومة، ويتولى الدفاع من حياة الشعب وحريته، كان يحكم الخارجين على القانون بصرامة وشدة، اقتضتها ظروف البيئة التي كان يعيش فيها.

ولقـد كـان محمـد – كرسـول يـدعو إلى الله – رجلًا رحيمًا لين الجانب حتى لأعدائه الشخصيين، وبـذلك اجتمعـت فيـه فـضيلتان، كلتاهمـا أكـبر الفضائل التي يتصورها العقل البشري وهما: الرحمة والعدالة.

وبحسبه أن الحرب التي هي أقصى ضرورات الحيـاة الإنـسانية قـد صـارت بفـضله أقـل وحـشية وقسوة؛ إذ أنه كان يطلب إلى جنوده ألا يقتلوا شيخا ولا امـرأة ولا طفـلا، ولا يهـدموا بيوتـا لم تتخـذ كمعاقل حربية.

... وقد أراد أعداء الإسلام أن يظهروا النبي في صورة رجل شهواني إباحي بأن اتخذوا من زيجاته المتعددة حجة لاتهامه بضعف خلقي لا يتفق ومركز النبوة؛ ولكن فاتهم أمر هام لم يحسبوا له حسابا، وهو أن النبي أيام فتوته وعنفوان شبابه لم يتزوج إلا من امرأة واحدة، ولم يتزوج من غيرها حتى ماتت، مع أنه كـان يعيش بين قوم سادت فيهم كثرة الطلاق والـزواج، وكـان يندر أن يقتصر الرجل منهم على زوجة واحدة، ولما فقدت وكانت سنه حين ذاك خمسين سنة تـزوج مـن أخـرى، كـما عقـد زيجاتـه المختلفـة التـي كانـت في أغلـب الأحيـان لـدواع اجتماعية أو سياسية لأنه كان يريد بهذه الطريقة أن يكتـسب إلى صـفه رجـالًا أتقيـاء أو نـساء تقيـات، ويرتبط بروابط المصاهرة بأسر قوية...»

«وكان كل ذلك يقصد نشر الإسلا»[1].

٨- ويدافع الكونت «هنري دي كاستري» عن اتهام النبي بتأليف القرآن، ويقول: «وكيف يعقل أن النبي ألف هذا الكتاب باللغة الفصحى، مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم الصالحون، وقد شاهدنا أن أناسا – وما كان أكثرهم – أميين قاموا في أمة العرب، وادعوا النبوة منهم مسيلمة الذي زعم أنه قرين محمد، أتى بسور سخر منها الغرب، ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبائيه لكفى ذلك أن يستولي على الأقطار ويأخذ بمجامع القلوب.

أتى محمد بالقرآن دليلًا على صدق رسالته، وهو لا يزال إلى يومنا هذا سرا من الأسرار التي تعذر فك طلاسمها، ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه منزل من الله، اللّٰهم إلا إذا اعتمدنا على قول ممجدي الدين المسيحي مما كنا نرتاح إليه أيام شبيبتنا، وهو يرجع إلى أن القرآن تأليف فاتح أراد تأييد سلطته، فجمع من كتب

اليهود والمسيحيين قانونا أودعه بعض قواعد الأدب والدين.. وأضاف إليه قصص الوقائع العظيمة لتأييد رسالته.

وعلى كل حال – أي سواء توصلنا إلى معرفة حقيقة القرآن أم لا – فلا ينكر أحد أن مظهر محمد كان مظهر نبوة بالفعل بقطع النظر عن صدق تلك النبوة وعدم صدقها؛ لأن النبوة من حيث هي عبارة عن قيام رجل يملي على الناس أمر ربه ويعتقد حقًا أن ما يقوله آت من عند الله.

خاتم الأنبياء

ومحمد كما قال (إيوالد) عن أنبياء بني إسرائيل: «أعتقد أن روحا من الله استولت على لبه، فلم يشعر بأن له فكرا خاصا؛ بل إنه أوتيه من عند ربه، واختفت في نظره أنانيته، ولم يعد يسمع غير صوت ذات فوق ذاته، ومن ذلك الحين أخذت شفتاه تنطق بالألفاظ بعضها أشد قوةً وأبعد مرمى من بعض، والأفكار تتدفق من فمه على الدوام، وكانت تلك الانفعالات تظهر على وجهه بادية، فظن بعضهم أن به جنة، وهو رأي باطل؛ لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين، ولم يشاهد عليه قبل ذلك أي اعتلال في الجسم أو اضطراب في القوة المادية...»

إذن ليس محمد من المبتدعين، ولا من المنتحلين كتابهم، وليس هو نبيًا سلابًا كما يقول (سابوس): «نعم، قد ترى تشابها بين القرآن والتوراة في بعض المواضع إلا أن سببه ميسور المعرفة، ذلك أن محمدا يلصق ديانة الإسلام بالديانتين المسيحية واليهودية، وحينئذ لا عجب إذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع، خصوصا إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها كما أن محمدا هو خاتم الأنبياء...»(٢).

ومن جماع هذه الآراء تبدو صورة محمد ﷺ واضحة في نفوس المنصفين من الغربيين على نحو قريب جدًا مما هي في نفوس المسلمين، ولا شك أن مصدر هذا النصر هو قوة الإسلام الذاتية في فرض تعاليمه وتأريخه وأفكاره على الفكر العالمي وتأثيره فيه، بالرغم من كل المحاولات التي اتخذت لتمزيق صفحته، وتشويه ملامحه فقد استطاع أن يحفر تيارا قويا على أيدي مجموعة من الأعلام من رجال الفكر والأدب والبحث العلمي.

========

(١) أ/ك/محاسن الإسلام. طبع يافا ١٩٣٤ ترجمة طه فوزي.

(٢) الإسلام. خواطر وسوانح. تأليف هنري دي كاستري. ترجمة أحمد فتحي زغلول – سنة ١٩١١م.

الصحبة وآدابها

بقلم: **الأستاذ حازم خنفر**

معنى الصحبة وما يرادفها من الألفاظ

اعلـم - رحمنـي الله وإيـاك - أن في الاجـتماع الإنساني صلات شتى تعرض بين الأفراد؛ فمنها: الصحبة، ومنها: الصداقة، ومنها: الأخوة، ومنها: الرفقة، ومنها: الخلة - وغيرها -.

وتشترك جميعها في معنًى كلي واحد، إلا أنها تختلف في أشياء:

أما معنى الصحبة من حيث الاشتقاق الكبير؛ فقد قال ابن فارس في «المقاييس»: «الصاد والحاء والباء: أصل واحد يدل على مقارنة شيء ومقاربته، من ذلك: (الصاحب)، والجمع: (الصحب)».

وأما من حيث المعنى الخاص؛ فهي: المعاشرة والملازمة، وقد قيدها بعض أهل اللغة بالرؤية والمجالسة، ولذا قد جاء في تعريف (الصحابي) عند المحدثين: هو من لقي النبي ﷺ مؤمنًا به ومات على الإسلام؛ سواء أطالت صحبته أم قصرت.

إلا أن الصحبة قد تطلق دون هذا القيد، وإنما يراد بها ملازمة الشيء بالبدن أو بغيره؛ كالصحبة مع الله، وقد سئل أبو عثمان - سعيد بن إسماعيل - الحيري عن هذه الصحبة، فقال: «الصحبة مع الله: بحسن الأدب ودوام الهيبة ... » كما رواه البيهقي في كتابه «شعب الإيمان».

وكذلك: لا تقيد الصحبة بمعاشرة البشر للبشر فقط؛ إنما قد تصرف إلى معاشرة البشر لغيرهم من الكائنات والموجودات.

ولا يشترط لها القصد؛ فقد تكون بإكراه ومن غير نية؛ كمصاحبة أهل النار للنار في قوله - تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(البقرة:٣٩).

قال أهل التفسير: والصحبة هي: الاقتران بالشيء في حالة ما، في زمن ما، فإن كانت الملازمة والخلطة فهو كمال الصحبة.

وقد جمع هذا الأصل وأجمله: الخليل بن أحمد في كتابه «العين»، بقوله: «وكل شيء لاءم شيئًا فقد استصحبه».

وضبط ذلك كله الراغب الأصفهاني في كتابه «المفردات في غريب القرآن»، فقال: «الصاحب: الملازم إنسانًا كان أو حيوانًا أو مكانًا أو زمانًا، ولا

فرق بين أن تكون مصاحبته بالبدن - وهو الأصل والأكثر -، أو بالعناية والهمة ... ولا يقال في العرف إلا لمن كثرت ملازمته، ويقال للمالك للشيء: (هو صاحبه)، وكذلك لمن يملك التصرف فيه».

وقد فرق أهل اللغة بين الصاحب والقرين:

قال أبو هلال العسكري في كتابه «الفروق اللغوية»: « ... أن الصحبة تفيد انتفاع أحد الصاحبين بالآخر، ولهذا يستعمل في الآدميين خاصةً، فيقال: (صحب زيد عمرًا) و (صحبه عمرو)، ولا يقال: (صحب النجم النجم) أو (الكون الكون) ... والمقارنة: تفيد قيام أحد القرينين مع الآخر ويجري على طريقته وإن لم ينفعه، ومن ثم قيل: (قران النجوم)، وقيل للبعيرين يشد أحدهما إلى الآخر بحبل: (قرينان)».

قلت: وقد يتوهم بأن ثمة اختلافًا بين ضبط الأصفهاني للصحبة وبين ضبط العسكري لها؛ إذ خصصه أبو هلال بالآدميين خاصةً، أما الراغب الأصفهاني فقد أطلقه وعداه إلى الحيوان والزمان والمكان!!

ولا تضارب بين القولين؛ فإن مراد أبي هلال متعلق باشتراط كون طرف الصحبة الأول المتكلم آدميا - وهو الفاعل -، ولهذا مثل الخطأ بقول القائل: (صحب النجم ...) و (صحب الكون ...)، ولا يريد بقوله - هذا - عدم جواز قول القائل: (صحبت الدهر) و (صحبت الصبر) و (صحبت الليل)، فهذا كله جائز؛ لأن المتكلم آدمي، وهذا لا يخالف قول الراغب الأصفهاني؛ فإن مراده متعلق بالطرف الثاني - وهو المفعول به -، فأشار إلى إطلاقه؛ كقول القائل: (صحبت كلبًا) أو (صحبت هذا المكان) - والله تعالى أعلم -.

أما الفرق بين الصحبة وبين ما رادفها من ألفاظ - كالصداقة والأخوة والرفقة والخلة -؛ فقد ضبط ذلك أهل اللغة في دواوينهم.

فأما الصداقة؛ فهي: صدق الاعتقاد في المودة، وذلك مختص بالإنسان دون غيره، وكما قيل: إنما سمي الصديق صديقًا لصدقه، والعدو عدوًا لعدوه عليك.

وقد ذكر ابن حزم في كتابه «الأخلاق والسير» حد الصداقة، فقال: «هو أن يكون المرء يسوءه ما يسوء الآخر، ويسره ما يسره، فما سفل عن هذا فليس صديقًا، ومن حمل هذه الصفة فهو صديق، وقد يكون المرء صديقًا لمن ليس صديقه ... إذ قد يحب الإنسان من يبغضه، وأكثر ذلك في الآباء مع الأبناء، وفي الإخوة مع إخوتهم، وبين الأزواج، وفيمن صارت محبته عشقًا، وليس كل صديق ناصحًا، لكن كل ناصح صديق فيما نصح فيه».

وأما الأخوة؛ فهي كل من جمعك وإياه صلب أو بطن، وتستعار لكل من يشاركك في القبيلة أو في

الـدين أو في الـصنعة أو في معاملـة أو في مـودة أو في غير ذلك من المناسبات.

وأما الرفقة؛ فتقال للقوم ما داموا منضمين في مجلس واحد ومسير واحد، فإذا تفرقوا ذهب عنهم اسم الرفقة، ولم يذهب عنهم اسم الرفيق.

وأما الخلة؛ فهي الصداقة، إلا أنها رتبة لا تقبل المشاركة، ولهذا اختص بها الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

وقال العسكري في «الفروق»: «والخلة: المودة التي تتخلل الأسرار معها بين الخليلين، وسمي الطريق في الرمل خلا؛ لأنه يتخلل لانعراجه».

وقال أيضًا: «الفرق بين الصداقة والخلة: أن الصداقة اتفاق الضمائر على المودة، فإذا أضمر كل واحد من الرجلين مودة صاحبه، فصار باطنه فيها كظاهره؛ سميا صديقين، ولهذا لا يقال: (الله صديق المؤمن) كما أنه وليه، والخلة: الاختصاص بالتكريم، ولهذا قيل: إبراهيم خليل الله؛ لاختصاص الله إياه بالرسالة، وفيها تكريم له ... ».

وقال ثعلب في معنى الخليل: إنما سمي الخليل خليلًا؛ لأن محبته تتخلل القلب، فلا تدع فيه خللًا إلا ملأته.

فضل الصحبة والأخوة

واعلم أن للأخوة الصالحة أثرًا عظيمًا في سلوك المؤمن، وذلك أن الله - جل شأنه - جعلها سببًا من أسباب الهداية؛ فإذا أراد بالعبد خيرًا قيض له صحبةً من الأخيار، وهيأ له من الإخوان من يعينه على صلاح نفسه، فلا يلبث أن يبلغ قدرهم أو يبرز عليهم.

قال ابن المقفع في «الأدب الصغير»: «وعلى العاقل أن لا يخادن ولا يصاحب ولا يجاور من الناس - ما استطاع - إلا ذا فضل في العلم والدين والأخلاق فيأخذ عنه، أو موافقًا له على إصلاح ذلك، فيؤيد ما عنده وإن لم يكن عليه فضل؛ فإن الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمي إلا بالموافقين والمؤيدين، وليس لذي الفضل قريب ولا حميم أقرب إليه ممن وافقه على صالح الخصال فزاده وثبته، ولذلك زعم بعض الأولين أن صحبة بليد نشأ مع العلماء أحب إليهم من صحبة لبيب نشأ مع الجهال».

وقال الماوردي في كتابه «أدب الدنيا والدين» ذاكرًا فضل مجالسة أهل الخير و مصاحبتهم بقوله: «فإذا كاثرهم المجالس وطاولهم المؤانس أحب أن يقتدي بهم في أفعالهم ويتأسى بهم في أعمالهم، ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم، ولا أن يكون في الخير دونهم، فتبعثه المنافسة على مساواتهم، وربما دعته الحمية إلى الزيادة عليهم والمكاثرة لهم، فيصيروا سببًا لسعادته، وباعثًا على استزادته، والعرب تقول: (لولا الوئام لهلك الأنام)؛ أي: لولا أن الناس يرى بعضهم بعضًا فيقتدى بهم في الخير لهلكوا، ولذلك قال بعض البلغاء: (من خير الاختيار: صحبة

الأخيار، ومن شر الاختيار: مودة الأشرار)، وهذا صحيح؛ لأن للمصاحبة تأثيرًا في اكتساب الأخلاق، فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح، وتفسد بمصاحبة أهل الفساد».

قلت: ولهذا جاء النهي عن الهجران، والترهيب منه؛ فقد أخرج الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «والذي نفسي بيده؛ ما تواد اثنان ففرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما».

قال المناوي في «فيض القدير»: «فيكون التفريق عقوبةً لذلك الذنب، ولهذا قال موسى الكاظم: إذا تغير صاحبك عليك فاعلم أن ذلك من ذنب أحدثته، فتب إلى الله من كل ذنب يستقم لك وده».

وأخرج الشيخان عن أبي أيوب الأنصاري، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال؛ يلتقيان، فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

واستثنى أهل العلم من هذا الهجران: أهل البدع والفسوق وغيرهم؛ مستدلين بأحاديث، منها: ما أخرجه الشيخان أن قريبًا لعبد الله بن مغفل خذف، فنهاه، وقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نهى عن الخذف ... فعاد، فقال: أحدثك أن رسول الله ﷺ نهى عنه ثم تخذف؟! لا أكلمك أبدًا.

والخذف: هو الرمي بالحصى بين أصبعين.

قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: «فيه هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة مع العلم، وأنه يجوز هجرانه دائمًا، والنهي عن الهجران فوق ثلاثة أيام إنما هو فيمن هجر لحظ نفسه ومعايش الدنيا، وأما أهل البدع ونحوهم فهجرانهم دائمًا، وهذا الحديث مما يؤيده، مع نظائر له؛ كحديث كعب بن مالك وغيره».

وقال ابن رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم» بعد أن أورد أحاديث الهجران: «وكل هذا في التقاطع للأمور الدنيوية، فأما لأجل الدين فتجوز الزيادة على الثلاث، نص عليه أحمد، واستدل بقصة الثلاثة الذين خلفوا وأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهجرانهم ... وأباح هجران أهل البدع المغلظة والدعاة إلى الأهواء».

وأما صحبة أهل المعاصي؛ فقد قال - تعالى - فيهم: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

قال الطبري في «تفسيره»: «المتخالون يوم القيامة على معاصي الله في الدنيا: بعضهم لبعض عدو، يتبرأ بعضهم من بعض؛ إلا الذين كانوا تخالوا فيها على تقوى الله».

ومما ذكر في هذه الآية: ما حكي عن ابن الجلاء أنه كان يقول لأصحابه: اطلبوا خلة الناس في هذه

الدنيا بالتقوى تنفعكم في الدار الآخرة، ألم تسمعوا الله - تعالى - يقول: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

قلت: وكذلك فإن في صحبة أهل الخير السلامة، وفي صحبة أهل الشر الأذى.

وفي ذلك قال بعض الحكماء: شر ما في الكريم: أن يمنعك خيره، وخير ما في اللئيم: أن يكف عنك شره.

وقال مالك بن دينار: نقل الحجارة مع الأبرار أنفع لك من أكل الخبيص مع الفجار.

ولهذا حث الشرع على صحبة الأخيار، فمن ذلك:

قوله - تعالى -: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، قال السعدي في «تفسيره»: «ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم ومخالطتهم وإن كانوا فقراء؛ فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى».

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المرء مع من أحب»، أخرجه البخاري ومسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»، أخرجه أحمد والترمذي.

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي»، أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود.

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل حامل المسك وكير الحداد؛ لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك أو ثوبك أو تجد منه ريحًا خبيثةً»، أخرجه البخاري ومسلم.

وعليه: فإن لصحبة أهل الخير والعلم والحكمة عظيم نفع للعبد الصالح وإن لم يبلغ مبلغهم، وكما قيل: من جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة.

بل وستكون صحبة الأخيار: من حسرات أهل النار يوم القيامة، بعد أن مالت بهم أهواؤهم عنها في الدنيا، ولم يحفلوا بها:

قال جعفر بن محمد: «لقد عظمت منزلة الصديق عند أهل النار؛ ألم تسمع إلى قوله - تعالى - حاكيًا عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء:١٠٠-١٠١].

فهرس مقالات منشورة في مجلة «الداعي»
من العدد الأول إلى العدد الثاني عشر عام ١٤٤٧هـ

ترتيب الأستاذ: **عمار عزيز العثماني**

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
١	كلمة العدد	الأخلاق أساس الأعمال	التحرير	١-٢	٣
		من أهداف الهجرة	التحرير	٣	٣
		أخيرٌ أريد بالمسلمين؟	التحرير	٤	٣
		هل صح قول من الحاكي؟	التحرير	٥	٣
		القرآن محاط بثلاثة تحصينات	التحرير	٦	٣
		رحلة الإسراء والمعراج.... تسلية للرسول ودليل على قدرة الله	التحرير	٧	٣
		تيسرًا لصيام رمضان	التحرير	٨	٣
		تأملات في شهر رمضان	التحرير	٩-١٠	٣
		همسة في أذن الشباب المسلم	التحرير	١١	٣
		الحج عبادة عالمية	التحرير	١٢	٣
٢	كلمة العدد	من أساليب القرآن في الدعوة والإرشاد	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	١-٢	٤-٨
		قوة التفكير من خصائص البشر	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٣	٤-٨
		دور المعاملات في تأليف القلوب	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٤	٤-٨
		المبادئ الأساسية لطبيعة الإسلام والمنهاج النبوي	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٥	٤-٨
		النيل من الصحابة رضي الله عنهم شنشنة قديمة	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٦	٤-٨
		قصة الإسراء والمعراج.... ايحاءات ودلالات	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٧	٤-٩
		أسلوب القرآن في الترغيب في البذل والإنفاق	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٨	٤-٨
		علاقة شهر رمضان بالقرآن الكريم	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٩-١٠	٤-٩
		لا ضرر ولا ضرار	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	١١	٤-٨
		فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم	محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	١٢	٤-٨

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
٣	الفكـــــــــر الإسلامي من ظلال التفســـير	من ظلال التفسير: سورة الأعراف: من الآية (٨٥) إلى الآية: (١٢٧)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	١-٢	٩-١٧
		من ظلال التفسير: سورة الأعراف: من الآية: (١٢٨) إلى الآية: (١٤٢)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٣	٩-١٤
		من ظلال التفسير: سورة الأعراف: من الآية: (١٤٤) إلى الآية: (١٥٥)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٤	٩-١٣
		من ظلال التفسير: سورة الأعراف: من الآية: (١٥٦) إلى الآية: (١٧٠)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٥	٩-١٤
		من ظلال التفسير: سورة الأعراف: من الآية: (١٧١) إلى الآية: (١٨٦)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٦	٩-١٤
		من ظلال التفسير: سورة الأعراف: من الآية: (١٨٧) إلى الآية: (٢٠٦)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٧	١٠-١٦
		من ظلال التفسير: سورة الأنفال: من الآية: (١) إلى الآية: (١١)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٨	٩-١٤
		من ظلال التفسير: سورة الأنفال: من الآية: (١٢) إلى الآية: (٤١)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	٩-١٠	١٠-٢١
		من ظلال التفسير: سورة الأنفال: من الآية: (٤٢) إلى الآية: (٥٨)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	١١	٩-١٤
		من ظلال التفسير: سورة يونس: من الآية: (١) إلى الآية: (١٥)	العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني تعريب: أبو عائض القاسمي	١٢	٩-١٣
	الفكـــر الإسلامي	شبهات وردود (الحلقة ١)	المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٣	١٥-٢٢
		شبهات وردود (الحلقة ٢)	المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٤	١٤-١٩
		شبهات وردود (الحلقة ٣)	المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٥	١٥-١٩
		شبهات وردود (الحلقة ٤)	المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٦	١٥-٢١

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
٣	الفكر الإسلامي	شبهات وردود (الحلقة ٥)	المربي الجليل العلامة أشرف علي التهانوي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري	٧	٢٠-١٧
		الجهل سيد الموقف	الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد	٧	٢٥-٢١
		متى يستجاب للدعاء؟	الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد	١١	٢٠-١٥
٤	دراسات إسلامية	الصلاة تعيد برمجتنا	أ. أحمد بسام ساعي	٢-١	٢٢-١٨
		من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ديوبند ديباجة.	أ. سيد محبوب الرضوي الديوبندي تعريب: محمد عارف جميل القاسمي	٢-١	٢٩-٢٣
		صور من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	أبو عائض المباركفوري	٢-١	٥٣-٣٠
		ثلاث ليالٍ في عاصمة تكنولوجيا المعلومات الهندية	التحرير	٢-١	٦٥-٥٤
		الهجرة النبوية المباركة... رحلة الفصل بين الحق والباطل	د. عدنان عبد البديع اليافي	٣	٢٧-٢٣
		من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	رئيس التحرير	٣	٣٦-٢٨
		لوحة الشرف للرعيل الأول من المؤمنين	أ. عبد المنعم النمر	٣	٤٣-٣٧
		من حديث القرآن عن الرسول ﷺ	أ. محمد الدسوقي	٣	٥٠-٤٤
		الرسول المعلم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ	الشيخ عبد الفتاح أبو غدة	٣	٥٣-٥١
		تكرار القصص في القرآن	أ. كامل شاهين	٤	٢٦-٢٠
		حض النبي ﷺ على محو العامّية وتحذيره من الفتور في التعليم والتعلم	الشيخ عبد الفتاح أبو غدة	٤	٣٢-٢٧
		في صحبة المكفوفين	الشيخ أحمد الشرباصي	٤	٣٦-٣٣
		حماية النظام الأسري ضرورة شرعية واجتماعية	أ. محمد رضي الرحمن القاسمي	٤	٤٥-٣٧
		ساعات في مدينة المال والأعمال	التحرير	٤	٥٢-٤٦
		القرآن الكريم وعقيدة البعث	أ. الشيخ محمد محمد المدني	٥	٢٣-٢٠
		قدرة الله تعالى في خلق الإنسان	أ. أحمد البدوي	٥	٢٦-٢٤
		الوفاء	أ. متولي عبد الله الفقاعي	٥	٣٠-٢٧
		موجة الإلحاد الجديد تحدياتٌ وحلولٌ	أ. محمد ذيشان أحمد القاسمي	٥	٣٧-٣١
		الإيمان والصحة النفسية	أ. عنتر مخيمر	٥	٤١-٣٨
		طليعة الوحي الإلهي	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد السماحي	٥	٤٧-٤٢
		إيقاع الصلاة وإيقاع الحياة	أ. أحمد بسام ساعي	٥	٤٩-٤٨

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
٤	دراسات إسلامية	إسهام الأستاذ نور عالم خليل الأميني في نشر وتنمية اللغة العربية في الهند	أ. محمد عفان البجنوري القاسمي	٥	٥٠-٥٣
		السنة دعاء واستعاذة	أ. طه محمد الساكت	٦	٢٢-٢٦
		من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	رئيس التحرير	٦	٢٧-٣٤
		الآثار الضارة لانفعال الغضب من وجهتي النظر الإسلامية والسيكولوجية	أ. محمد عيسوي الفيومي	٦	٣٥-٣٩
		القراءة المقبولة والمردودة	فضيلة الشيخ عبد الفتاح القاضي	٦	٤٠-٤٢
		أدب الإختلاف مع العلماء	الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي تعريب: أ. عاذب أشرف الأعظمي	٦	٤٣-٤٧
		مكة المكرمة: أسماؤها – صفاتها – فضلها– حرمتها	أ. عبد الحميد حجازي	٦	٤٨-٥٣
		كيف تدير الصلاة حياتنا؟	أ. أحمد بسام ساعي	٧	٢٦-٢٨
		قصة الإسراء والمعراج كما تحدث الرسول ﷺ	د. أحمد عمر هاشم	٧	٢٩-٣٤
		وقفات وتأملات... في ضوء ما أفاده حكيم الأمة الشيخ أشرف علي التهانوي	أ. محمد رضي الرحمن ا لقاسمي	٧	٣٥-٤٤
		موقف الإسلام من الفقراء	فضيلة الأستاذ سيد شريف	٧	٤٥-٤٨
		حفظ اللسان	أ. عبد الحميد حجازي	٧	٤٩-٥٠
		الإسلام في حياتنا	د. محمود البرشومي	٨	١٥-١٨
		من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	رئيس التحرير	٨	١٩-٢٣
		حسن البيان فيما تشابه من آي القرآن	أ. فهيم سالم المليجي	٨	٢٤-٢٦
		أدب الإختلاف في الإسلام...	أ. محمد عبد الشافي القوصي	٨	٢٧-٣٢
		الإسلام ورسوله وتعاليمه بلغة العصر	أ. أحمد حسين المحامي	٨	٣٣-٣٨
		القرآن الكريم: منهج الهداية وسبيل النهضة	محمد فائز جميل المباركفوري	٨	٣٩-٤٢
		ليلتان في إمارة إسلامية هندية سابقة	التحرير	٨	٤٣-٥٣
		حول إعجاز القرآن الكريم	د. محمد أحمد الغمراوي	٩-١٠	٢٢-٣٠
		من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	رئيس التحرير	٩-١٠	٣١-٤١
		الصوم	فضيلة الأستاذ الشيخ محمد السباعي عامر	٩-١٠	٤٢-٤٨

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
٤	دراسات إسلامية	رمضان: شهر النور والتجديد والإيمان	د. محمود مصطفى حلمي	٩-١٠	٤٩-٥٣
		الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي رحمه الله	الشيخ عبد الفتاح أبو غدة	٩-١٠	٥٤-٦٢
		أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها	د. أحمد خليل جمعة	٩-١٠	٦٣-٧١
		رسائل العلامة أنور شاه الكشميري باللغة العربية: دراسة وصفية	رئيس التحرير	٩-١٠	٧٢-٩٢
		الدين ضرورة اجتماعية	أ. السيد محمد أبو المجد	١١	٢١-٢٥
		من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	رئيس التحرير	١١	٢٦-٣٤
		مضار الإسراف	الشيخ محمد الخضر حسين	١١	٣٥-٣٩
		أبعاد هدي القرآن	د. إبراهيم بن حسن بن سالم	١١	٤٠-٤٦
		اللذة مع الحكمة	الشيخ محمد الطاهر بن عاشور	١١	٤٧-٥٠
		العلامة الطبيب علي بن حزم القرشي	الشيخ عبد الفتاح أبو غدة	١١	٥١-٥٤
		فلينظر الإنسان مم خلق	د. محمد سلام مدكور	١٢	١٤-١٨
		من الإعجاز البياني في القرآن الكريم	رئيس التحرير	١٢	١٩-٢٦
		أثر الإحسان في فريضة الحج	د. عبد الوهاب القرش	١٢	٢٧-٣٤
		حماية الإسلام للنفوس من الضرر المعنوي	أ. يوسف العزوزي	١٢	٣٥-٤٣
		اختلاف الرأي: أصول وآداب	أ. محمد رضي الرحمن القاسمي	١٢	٤٤-٤٩
		الكذب على رسول الله أو الحديث الموضوع	الشيخ محمد عبد الظاهر خليفة	١٢	٥٠-٥٤
٥	إلى رحمة الله	الوستانوي في ركب الخالدين	رئيس التحرير	١-٢	٦٦-٨٨
		المحدث الشيخ محمد عاقل المظاهري رحمه الله	أبو عاصم جميل القاسمي المباركفوري	١-٢	٨٩-٩١
٦	فهرس مقالات	فهرس مقالات منشورة في مجلة «الداعي» من العدد الأول إلى العدد الثاني عشر عام ١٤٤٧هـ	ترتيب: أ. عمار عزيز العثماني	١-٢	٩٢-٩٧
٧	أنباء الجامعة	وزير الخارجية الأفغاني يزور الجامعة على رأس وفد رفيع المستوى	التحرير	٧	٥١-٥٢
		اللجنة التنفيذية لرابطة المدارس الإسلامية الهندية تعقد دورة هامة في رحاب الجامعة الإسلامية/ دارالعلوم/ ديوبند	الطالب: عبد الله نظامي الأعظمي	٩-١٠	٩٣-٩٦

م	الموضوع	عنوان المقال	الكاتب	العدد	الصفحات
٨	إشراقة	أنواع من الاحتبارات	أبو عائض القاسمي المباركفوري	١-٢	٩٨-١٠٠
		لقد رأيت من إعجاز هذا القرآن عجبًا	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٣	٥٤-٥٦
		من أشد منا قوة	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٤	٥٣-٥٦
		وعد أمريكي	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٥	٥٤-٥٦
		الجندي المجهول	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٦	٥٤-٥٦
		أما على الخير أعوان وأنصار؟!	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٧	٥٣-٥٦
		أ أترك سنة نبيي.....؟!	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٨	٥٤-٥٦
		من تعلم تألم	أبو عائض القاسمي المباركفوري	٩-١٠	٩٧-١٠٠
		خالِف تُذْكَر	أبو عائض القاسمي المباركفوري	١١	٥٥-٥٦
		مسجد نموذجي	أبو عائض القاسمي المباركفوري	١٢	٥٥-٥٦

❊ ❊ ❊

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ١٠٠

أشبه بالحيوان الأعجم، صفر اليدين من الثقافة والحضارة والعلم. فالواقع أنه لولا القلم لعجز البشر عن تدوين العلوم، وضبط الحكم، وقيد الشوارد والأوابد من أخبار الماضين الأولين، وأحوالهم، و سيرهم ومقالاتهم وآلامهم وأحلامهم؛ ولتزعزت أركان أمور الدين والدنيا، فما بقي دين ولا صلح عيش.

وقال بعض السلف: في القلم حكمتان: بلاغة المنطق وجلالة الصمت، وفي دمغة الأقلام امتحان عقول الأنام والفرق بين النقض والإبرام، وسمة أسنان الأقلام في صحون المكاتب أحسن من حمرة الخجل في خدود الكواعب، وفي مشق القلم مجة الأفعى وبلوغ غاية المنى، وسن القلم عند الغضب نار وعند الرضا جار، والخط نتاج اليد وسراج الذكر والبيان، واللسان شافع ووجيه وافد نبيه، ورب إشارة أبلغ من عبارة، ونعم المرتبتان: الرواء الأنيق واللسان الذليق، وطعن اللسان أنكى من طعن السنان، وللخط وسيلة هي أهدى من الحيلة.

وقديما قالوا: الكلام هواء لايبقى إلا بالقيد وقيده القلم، فهو صياد يصيد المعارف و العلوم، يبكي فتبتسم الكتب والأسفار، ويركع القلم فتخر له الجبابر ساجدين. فسبحان الله تعالى ما أعظم قدرته حيث جعل الدين بسواد القلم سراجًا وقمرًا منيرًا، وجعل الإنسان بسواد عينه بصيرًا عليمًا، ولويكن على لطيف حكمة الله تعالى ودقيق تدبيره دليل غير القلم والخط لكفى وأغنى.

وقيل: نعم النجدة القلم. يقلم أظافير الدهر، فيملك الأقاليم بالنهي والأمر. إن أردت كان مسجونًا لا يمل الإسار، وإن شئت كان جوادًا لا يعرف العثار. لا ينبو إذا نبت الصفاح، ولا يحجم إذا أحجمت اللقاح. القلم مطية تمشي براكبها رهوًا، وتكسو الأنامل زهوًا.

وقديمًا قالوا: القلم أحد اللسانين، وجرح

اللسان أشد تأثيرًا وبقاءً من جراحات السنان، فيقول قائلهم:

وَ قَدْ يُرجىٰ لِجُرحِ السيفِ برءٌ
وَ لا برءٌ لِما جَرَحَ اللسانُ
جِراحات السِّنانِ لها التِئامٌ
وَ لا يلتامُ ما جَرَحَ اللسانُ
وَ جرحُ السيفِ تدملُهُ فَيَبْرىٰ
وَ يبقىٰ الدهرُ ما جَرَحَ اللسانُ

وقالوا: «القلم أحد اللسانين، والعلم أحد الأبوين، والتثبت أحد العفوين، والمطل أحد المنعين، وقلة العيال أحد اليسارين، والقناعة أحد الرزقين، والوعيد أحد الضربين، والإصلاح أحد الكسبين، والرواية أحد الهاجيين، والهجر أحد الفراقين، واليأس أحد النجحين، والمزاح أحد السبابين».

والكاتب يبلى ويفارق العالم، ويبقى ما كتبته يداه، ونعم ما قال العربي:

وَما مِن كاتِبٍ إلا سَيفني
وَيَبقي الدَهر ما كَتَبَتْ يَداه
فَلا تَكتُب بِكفك غَير شَيءٍ
يَسرك في القِيامة إِن تَراه

وقال بعض الشعراء في وصف القلم:

عَجِبْتُ لِذِي سِنَّيْنِ فِي الماءِ نَبْتُه
لَهُ أَثَر فِي كُلِّ مِصْرٍ ومَعْمَرِ
وَلَقَدْ نُقِيمُ، إِذا الخُصُومُ تَنافَدُوا
أَحْلامَهم، صَعَرَ الخَصِيمِ المُجْنِفِ
حَتَّى يَظَلَّ كأَنه مُتَثَبِّتٌ،
بِرُكُوحِ أَمْعَزَ ذِي رُيُودٍ مُشْرِفِ

وقال أَبُو تمّام حَبِيبُ بن أَوْسٍ الطَّائِيّ (١٨٨ - ٢٣١هـ/٨٠٣-٨٤٥م)، أحد أمراء البيان وهو من أحسن ما قيل في وصف القلم:

لَكَ القَلَم الأَعلى الّذِي بِشَبَاتِهِ
تَصابُ من الأمرِ الكُلَى وَالْمَفَاصِلُ
لَهُ الْخَلواتُ اللاَّء لَولا نَجِيُّها
لما احْتَفلتْ لِلْمُلكِ تِلْكَ الْمَحافِلُ
لُعابُ الأَفاعي القاتِلاَتِ لُعَابُهُ
وَأَرْيُ الجنَى اشْتارَتْهُ أَيدٍ عَواسِلُ

* * *

القلم نعمة أي نعمة

القلم من أهم اختراعات البشر، وهو آية للحضارة والعلم، وأداة للتعبير عما في الضمير إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فهو -رغم بساطته- سلاح فتاك ذو حدين، وله تأثير مزدوج يرجع إلى إحسان استخدامه أو إساءته فيما يسطر.

والقلم من نعم الله تعالى على الإنسان، فقد نوه بذكره في كتابه في غير ما آية، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران:٤٤]، وقال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١]، وقال عز في علاه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

وامتن الله تعالى على البشرية بالتعليم بالقلم، فإن القلم كان وما زال أعمق آلات التربية والتعليم والتثقيف أثرًا في حياة البشر، واللسان رغم ما له من تأثير عميق لايشق غبار القلم، ويجرى في حلبته، ولا يدرك غايته ولايتعاطى شأوه. ولم يدرك البشر هذه الحقيقة حين نزول هذه الآيات بهذا الوضوح والجلاء مثلما يلمسه ويدركه اليوم، فقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:٣-٥].

فهذه الآية الكريمة - من أول سورة نزلت من القرآن الكريم- تنبه البشرية على ما للقلم من قيمة، وما له من أثر عميق في الحضارة والثقافة والمدنية، وفي حفظ التراث الفكري عبر القرون، وما سيكون له من الدور الريادي في إنشاء حضارة إسلامية عريقة. ولولا القلم لكان الإنسان

(البقية على ص٩٨)

أبو عائض القاسمي المباركفوري